رواء

مجلة فكرية دورية

- قراءة (تاريخية) في قول عمرو بن العاص ﷺ عن خصال الروم!
- تغوُّل الخطاب الإنشائي وأثرهُ في تسطيح المعرفة
- هل في التصوُّر الشرعي للزواج امتهانٌ لكرامة المرأة؟
- حديث بعض الأرقام، عن إبداع العزيز العلَّام

الظلم.. مؤذِنٌ بخراب العمران

22

العدد الثاني والعشرون

صفر ١٤٤٥هـ - أيلول/ سبتمبر ٢٠٢٣م

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

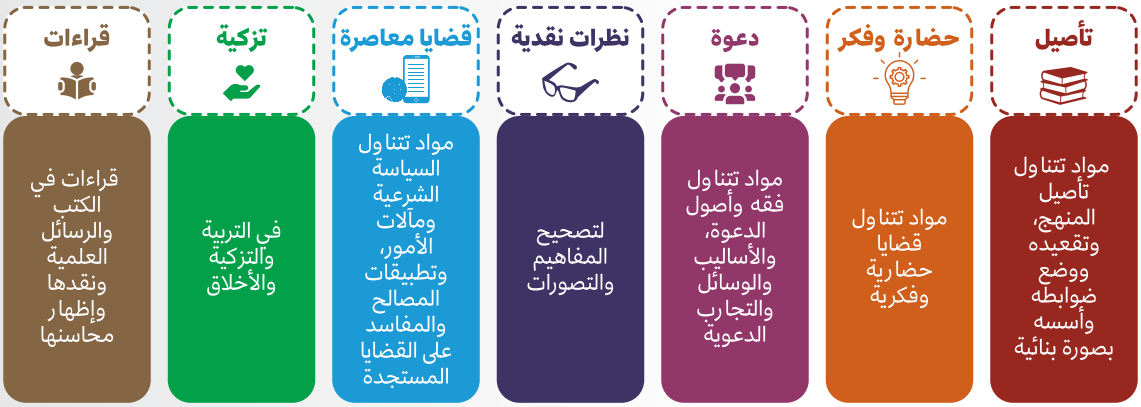

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

الظلم.. مؤذِنٌ بخراب العمران ٢
الافتتاحية

هل للفقه الإسلامي مصادرغير إسلامية؟ ٨
د. عمار بن إبراهيم العيسى

قراءة (تاريخية) في قول عمرو بن العاص عن خصال الروم! ١٦
د. محمد عبد الله السلومي

تغوُّل الخطاب الإنشائي وأثرهُ في تسطيح المعرفة ٢٣
د. أمين نعمان الصلاحي

هل في التصوُّر الشرعي للزواج امتهانٌ لكرامة المرأة؟ ٢٩
أ. هدى عبد الرحمن النمر

حديث بعض الأرقام، عن إبداع العزيز العلَّام ٣٦
م. فداء ياسر الجندي

القصص القرآني: منهج تربوي فريد ٤٠
أ. محمد أمجد عبد الرزاق بيات

الدين والأخلاق في السياق الغربي الحديث: (علاقة وصل أم فصل؟) ٤٧
د. كريمة دوز

التنمية الدعوية.. نحو آفاق متجدِّدة ٥٤
أ. عبد الرزاق ميزة نازي

قراءة في كتاب:
«تكوين الملكة اللغوية» للبشير عصام المراكشي ٦٢
محمود كريم

بأقلام القراء ٧٠
مجموعة من القراء

وأنزَلَ السَّكينةَ عليهم ٧٢
د.خير الله طالب

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

هيئة الشام الإسلامية

أسرة التحرير

د. عماد الدين خيتي
رئيس التحرير

أ. ياسر المقداد
مدير التحرير

أ. محمود درمش
سكرتير التحرير

أ. جهاد خيتي

أ. عبد الملك الصالح

التصميم والإخراج الفني
موشن
Creative Agency
motionat.com

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

كلمة التحرير

الظلم.. مؤذِنٌ بخراب العمران

مدخل:

تعيش البشرية في سنواتنا هذه حقبةً صعبة، تتتابَع فيها المنغِّصات والمزعجات، بل يملؤها الظلم بأنواعه، ويرافقها الخوف من التغيُّرات الكبرى على مستوى العالم كله، فالاحترار والجفاف والتصحّر من جهة، والحروب والنزاعات وتوابعها من جهة، ومن جهة أخرى: التضخّم الاقتصادي والغلاء الفاحش، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يمتد ليطال تكوين الأسرة وإفساد الحياة الزوجية والأولاد، ليصل إلى أنواع غير مسبوقة من الفواحش والمحرمات والموبقات.

وهذه المظاهر التي تُنذر بمستقبل مظلم لا يُلحظ تراجُع حدّتها، ولا وقوفها عند مستوى معيَّن، بل تزداد يومًا بعد يوم، حتى صارت الزَّفَرات اليائسة والعبرات المحبَطة حديثًا معتادًا لدى الشباب، في الوقت الذي يُنتظر منهم أن يكونوا شُعَلاً من الطموح وجرعاتٍ من الأمل.

فما الذي أوصل البشرية لهذه الحافة؟ وهل من مَخرجٍ يُعيد للحياة توازنها وللمستقبل إشراقته؟

العدل أساس الحياة:

خلق الله الخلق وشرع لهم ما يُقيم حياتهم على أحسن حال، ومما وضعه أساسًا لا تنتظم الحياة إلا به ولا تصلح إلا معه: العدل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والقسط هو العدل الذي به يتحقق التعادل أو التوازن بين الأشياء دون ميل أو جَور، أو طغيان من جانب على جانب، ولعلّ في ذكر الميزان هنا -وفي آيات أخرى- ما يشير إلى ضرورة التوازن في الحياة الإنسانية؛ ولهذا عظّم الله الميزان فقَرَنه بالكتاب في آيتين، وقَرَنه برفع السماء في سورة الرحمن، حين قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

فإذا غاب العدل عن الحياة توحّشت، وأصبحت غابة يأكل فيها القوي الضعيف، وفُقد الأمن، وانقطعت أواصر العلاقات، وحلّت مكانها المشاحنات والعداوات، وهذا مُؤذن بفساد الحال وخراب البلاد.

قال الماورديّ: «وأما القاعدة الثالثة: فهي عدل شامل يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان. فقد قال المَرْزُبان لعمر حين رآه وقد نام متبذِّلاً: عدلت فأمنت فنمت. وليس شيء أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجَور؛ لأنه ليس يقف على حد ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل»[1].

(١) أدب الدين والدنيا، ص (١٣٩).

إذا غاب العدل عن الحياة توحّشت، وأصبحت غابة يأكل فيها القوي الضعيف، وفُقد الأمن، وانقطعت أواصر العلاقات، وحلّت مكانها المشاحنات والعداوات، وهذا مُؤذن بفساد الحال وخراب البلاد

العدل شريعة وحضارة وعمران:

العدل أصل عظيم كتبه الله على نفسه، وتسمّى به، فهو العدل والعادل سبحانه وتعالى، وقد حرّم جلّ شأنه على نفسه نقيضه وهو الظلمَ، (يا عبادي.. إني حَرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُهُ بينكم مُحَرَّمًا فلا تظالموا)[1]، ونفى وقوعه منه، فقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

بالعدل قامت السماوات والأرض، وبه بعث الله الرسل وأنزل الشرائع، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. قال ابن القيم رحمه الله: «فإن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات»[2].

وبالعدل تُنال محبةُ الله ورضوانه، قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وكما ورد في الحديث: (إنَّ المقسطين عند الله على منابِرَ من نور، عن يمين الرحمن عز وجل)[3].

فالعدل في الحياة ليس مجرّد أمر واجب الاتباع، بل هو من أهداف الإسلام العظمى، وقِيَمِه الحضارية الكبرى، بل لا يتحقق أي مشروع حضاري لأي أمة إلا به، قال ابن تيمية: «العدل نظام كلِّ شيء، فإذا أُقيم أمر الدنيا بعدلٍ قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خَلاق، ومتى لم تقُم بعدلٍ لم تقُم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزى به في الآخرة»، وقال أيضًا: «وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم؛ ولهذا قيل: إنّ الله يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يُقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويُقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام»[4].

فالعدالة في الإسلام هي مشروع حضاري بأبعادٍ أخلاقية وإنسانية، وهو واجب حتى مع الأعداء ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

فإذا ساد العدل في المجتمع انسابت الطمأنينة في النفوس، وشعر الناس بالاستقرار والألفة، واستتبَّ الأمن، وشاعت بين الناس روح التعاون والتماسك والمحبة والوئام، وقضي على كثير من المشكلات الاجتماعية، واستقامت علاقة الحاكم بالمحكوم، فانقطع الطمع في منازعة السلطان، وتفرغ الناس لأعمالهم وأشغالهم، وقامت الدولة واستقر حكمها وسلطانها؛ مما يؤدي لازدهارها.

قال عمرو بن العاص ﷺ: «لا سلطان إلا بالرجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل»[5].

إذا انتشر الظلم في مجتمع وشاع؛ ولم يقف في وجهه أحد، حقّ عليهم غضب الله تعالى ونقمته، ونزل بهم أنواع العقاب من محق البركة والضيق في الرزق، بل يسلِّط الله عليهم الكوارث والأمراض والأوجاع، وطغيان الأمم الأخرى، فيحيلونهم أذلاء بعد السيادة، ويذيقوهم مرارة العبودية والاستضعاف

الظلم من أشنع الخطايا:

ضدُّ العدل هو الظلم، وهو من أعظم الذنوب التي يُعصى اللهُ بها على اختلاف صوره ودرجاته، والظلم من أعجل الذنوب عقوبةً في الدنيا والآخرة؛ وقد جاء في الوعيد عليه نصوص كثيرة منها:

» نفي الفلاح عن الظالمين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

(١) حديث قدسي أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) الطرق الحكمية، ص (١٣).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٧).
(٤) مجموع الفتاوى (١٤٦/٢٨).
(٥) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، لسبط ابن الجوزي (٣٦/٧).

» توعّد الظالمين بإضلالهم وعدم هدايتهم للحق، قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

» الطرد من رحمة الله في الآخرة، قال سبحانه: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

» تعجيل العقوبة في الدنيا، قال رسول الله ﷺ: (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم)[١]. وقال: (إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته) قال: (ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢])[٢].

» العذاب الشديد في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣]، وقال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

الظلم مُؤذِن بالخَراب:

شؤم الظلم وآثاره لا تقف عند الظالم فحسب، بل هي مؤذنةٌ بخراب عام، فالظلم أول ما يَبدأ بصاحبه، يُفسد دينه وأخلاقه، ويشوِّه إنسانيته ونفسيته، مما ينعكس على تعاملاته مع سائر الناس والمجتمع.

فإذا انتشر الظلم في مجتمع وشاع؛ ولم يقف في وجهه أحد، حقّ عليهم غضب الله تعالى ونقمته، ونزل بهم أنواع العقاب من محق البركة والضيق في الرزق، بل يسلط الله عليهم الكوارث والأمراض والأوجاع، وطغيان الأمم الأخرى، فيحيلونهم أذلاء بعد السيادة، ويذيقونهم مرارة العبودية والاستضعاف.

فالحَيف وسلب الحقوق وإهدار الكرامات مبعث الشقاء ومثار الفتن، قال شمس الدين الغرناطي: «نِيَّةُ الظلم كافية في نقص بركاتِ العمارة؛ فعن وَهْب بن منبه: إذا هم الولي بالعدل أدخل الله البركاتِ في أهل مملكته حتى في الأسواق والأرزاق، وإذا هم بالجَور أدخل الله النقص في مملكته حتى في الأسواق والأرزاق»[٣].

وإن أدنى ما يستجلبه الظلم: دعوة المظلوم، فعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ بعث معاذًا إلى اليمن، فقال: (اتَّقِ دعوةَ المظلوم؛ فإنَّها ليس بينها وبين الله حجاب)[٤].

بل إن الله تعالى كتب على نفسه أن ينصر المظلوم وينتقم من الظالم، ففي حديث خُزَيمة بن ثابتٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (اتَّقوا دعوة المظلوم؛ فإنها تُحْمَل على الغمام، يقول الله: وعِزَّتِي وجلالي لأنصُرَنَّك ولو بعد حين)[٥].

وكتبَ بعض وُلاة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله إليه كتابًا جاء فيه: «أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يقطع لها مالاً يَرمُّها به فعل»، فكتب إليه عمر: «أما بعد: فقد فهمتُ كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأتَ كتابي هذا فحَصِّنْها بالعدل، ونَقِّ طرُقَها من الظلم؛ فإنه مَرمَّتُها، والسلام»[٦].

بل يتعدَّى شؤم الظلم العبادَ والبلادَ إلى فساد البيئة وفقدانها صلاحيةَ العيشِ الهني، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، قال الطبري رحمه الله: «ظهرت معاصي الله في كل مكان من بر وبحر (بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) : أي بذنوب الناس، وانتشر الظلم فيهما. وقوله: (لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا) يقول جل ثناؤه: ليصيبهم بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوا، ومعصيتهم التي عصوا (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) يقول: كي ينيبوا إلى الحق، ويرجعوا إلى التوبة، ويتركوا معاصي الله»[٧].

(١) أخرجه أبو داوود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١) وصحّحه، وابن ماجه (٤٢١١).
(٢) متفق عليه: البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).
(٣) بدائع السلك في طبائع الملك (٢٢٧/١).
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤٨)، ومسلم (١٩).
(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٧١٨).
(٦) حلية الأولياء (٣٠٥/٥)، مَرَمَّتُها: أي إصلاحها.
(٧) تفسير الطبري (١٠٩/٢٠).

من صور الظلم المعاصرة: التحكم في حق الناس في البحث عن معيشة أفضل، وفرض أنظمة جائرة للتأشيرات والإقامة والمواطنة، فصار كثير من الناس يقتحمون المهالك في سبيل الوصول إلى وجهتهم، ويتعرّضون في طريقهم للأهوال، ولو نجوا ووصلوا فهم عرضة للترحيل التعسفي، فضلاً عن الفتن والمشكلات الاجتماعية الكثيرة

من صور الظلم الكبرى المعاصرة:

في زماننا هذا عمّ الظلم حتى تضافر الأقوياء على حمايته وتكريسه، مما أدّى إلى سحق الضعفاء وهضم حقوقهم، ونشر اليأس وقتل الأمل في نفوسهم، ومن أهم صوره المعاصرة:

- حركة الاستعمار التي اعتدت على الشعوب والدول، وسامتها سوء العذاب، فأسقطت حكوماتها، واحتلت أرضها، وصادرت قرارها، وسامتها سوء العذاب قتلاً وتهجيرًا وإحلالاً للأغراب في ديارهم وممتلكاتهم، وتركت أهالي البلاد المستعمرة فقراء متخلّفين، مع تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ للدول القوية، حتى صار العالم ألعوبةً في يد دول قوية معدودة لا يهمّها إلا استمرار النفوذ والمصالح ولو على حساب المبادئ والقيم.
- ثم صارت الدول القوية تتدخل لمنع أي حركة تحرّر من الهيمنة السياسية للقوى الكبرى، ولو استدعى ذلك تدبير الانقلابات، واستخدام أفتك الأسلحة وأشنعها ولو أدّى إلى إبادة شاملة، وفي الوقت نفسه: تقوم بإضعاف جميع مقومات الحياة الكريمة في الدول الضعيفة؛ لضمان تبعيتها واستمرار تحكُّمهم فيها.
- وحتى يكتمل مشهد الهيمنة: عمدت إلى فرض وتشجيع أسلوب ونمط حياة قائم على اللهو والاستهلاك، وفرض الأنظمة الاقتصادية القائمة على الربا؛ مما يكرّس غنى الغني وفقر الفقير، إضافة إلى منع أي محاولة لإنشاء نظام مستقلّ أو بديل.
- وفي الجانب الاجتماعي: تفكيك بنية الأسرة من خلال تغذية صراع مفتعل بين الرجل والمرأة، وتشجيع جميع أشكال التحرّر الجنسي والفوضى الأخلاقية المصاحبة لها، ومحاربة الفضيلة والحشمة وتجريمها إن لزم الأمر.
- ومن أكثر الصور بؤسًا: التحكم في مسارات الهجرة وبحث الناس عن فرص معيشية أفضل، وفرض أنظمة جائرة للتأشيرات والإقامة والمواطنة، الأمر الذي يجعل كثيرًا من الناس يغامرون ويقتحمون المهالك في سبيل الوصول إلى وجهتهم، ويتعرّضون في طريقهم للقتل أو الاعتقال والتعذيب، ولو نجوا ووصلوا فهم عرضة للترحيل التعسفي، فضلاً عن الفتن والمشكلات الاجتماعية الكثيرة.

لكل دولة نصيبها من الظلم:

لا يقتصر الظلم على ما تفرضه الدول الكبرى على الدول الضعيفة والنامية، ففي كل دولة من الدول الصغيرة قامت أسواق للظلم لم يعرف لها العالم الإسلامي سابقة في الظلم والحيف وأكل الحقوق واستعباد الشعوب، والذي تتشارك فيه مع الدول القوية، ومن ذلك:

» مصادرة رأي الناس عامتهم وخاصتهم فيمن يتولى شؤون الحكم في بلادهم، وفرض أشخاص وأنظمة عليهم دون إرادتهم، والاستئثار بالمناصب والامتيازات للأقارب والمعارف في حلقة ضيقة من المنتفعين.

» محاربة العلماء والدعاة والمصلحين، قتلاً وسجنًا وطردًا وتقييدًا للحركة ومنعًا من أداء رسالة الأنبياء في توعية المجتمعات وتعليمهم أمور دينهم، ودفع الشبهات عنهم، مع تمكين المفسدين من مراكز التأثير السياسية والإعلامية والتعليمية، وتسليطهم على الناس، وحمل المجتمعات على فسادهم وانحرافهم حملًا.

» الاستجابة المطلقة لإملاءات الدول القوية من قوانين ظالمة؛ بهدف المحافظة على مكاسب سياسية وضمان البقاء على الكرسي.

» إذكاء نار العنصرية في المجتمعات فكرًا وممارسة، وصب ألوان العذاب والممارسات الظالمة على «غير المواطنين» بحجة الحفاظ على توازن المجتمع، أو الصمت عن هذه الدعوات والممارسات على أقل تقدير؛ رضًى بها واستثمارًا لها.

وهكذا نرى أن هذه الممارسات تندرج تحت عنوان ظلم القوي للضعيف، واستغلاله والتحكم فيه، وهضمه واحتقاره والتكبر والتعالي عليه، وتقييد حريته وسجنه، أو إزهاق روحه، وعندها

يحقّ للعاقل أن يسأل: كيف يقدس الله أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير مُتَعْتَعٍ؟[١].

ولابن خلدون رحمه الله كلامٌ في ذلك أصبح منارةً لكل مَن يتحدث عن أثر الظلم على العمران، ومما قاله: «الظلم مؤذنٌ بخراب العمران.. اعلم أنّ العدوان على الناس في أموالهم ذاهبٌ بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذٍ من أنَّ غايتَها ومصيرها انتهابُها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك»[٢].

وقال: «ومن أشدِّ الظلامات وأعظمِها في فساد العمران تكليفُ الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق.. فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخريًا في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو مُتَموَّلهم، فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة، وإن تكرّر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة، وقعدوا عن السعي فيها جملة؛ فأدّى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه»[٣].

> **لا يقتصر الظلم على ما تفرضه الدول الكبرى على الدول الضعيفة والنامية، ففي كل دولةٍ من الدول الصغيرة قامت أسواقٌ للظلم لم يعرف لها العالم الإسلامي سابقةً في الظلم والحيف وأكل الحقوق واستعباد الشعوب، والذي تتشارك فيه مع الدول القوية**

ظلم الناس بعضهم بعضًا:

في حمأة الحديث عن الظلم الأكبر المتسلِّط على رقاب الناس ممن بيده السُّلطة والقوة، لا ينبغي أن ننسى الظلم الواقع من أفراد الناس تجاه بعضهم البعض؛ من ظلم الرجل صاحبَه أو قريبَه، وظلم الشريك شريكَه، وظلم الزوج زوجتَه أو الزوجةِ زوجَها، وظلم الأبِ أبناءَه، وظلم الأبناء آباءَهم، وظلم الجار جارَه، وظلم المعلم طلابَه، وظلم المدير وصاحب العمل للموظفين والعمال، ... ونحو ذلك.

وهذا كلُّه من الظلم الذي يطال شؤمُه المجتمع، وداخلٌ فيما توعَّد الله صاحبه بأشد العذاب.

كلكم مسؤول:

القيام بالعدل، ومجابهة الظلم، والانتصار للمظلوم لا يختص بالحاكم أو القاضي، أو فريق من الناس، بل هو واجب على الجميع، كلّ بما يخصّه وما يستطيعه، لقوله ﷺ: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده...)[٤].

فالوالدان مأموران بالعدل بين أولادهما، والزوج مأمور بالعدل في بيته، والتاجر مأمور بالعدل في متجره وشركته، والحاكم مأمور بالعدل بين رعيته، وكلّ من حكم بين الناس فهو مأمور بالعدل بين الخصوم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال ﷺ: (إن المقسطين عند الله على منابِرَ من نور، عن يمين الرحمن عز وجل -وكِلْتا يديه يَمين- الذين يعدلون في حُكمهم وأهليهم، وما ولوا)[٥].

وما من أحدٍ إلا وهو مطالبٌ بالعدل مأمورٌ به، محاسبٌ عليه، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (انصُر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: (تحجُزُه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره)[٦].

الساكتون عن الظلم:

قد يتخذ فريق من الناس موقف السكوت أو الصمت عن الظلم ظنًا منهم أن عدم مشاركتهم بالظلم كافٍ في رفع الملامة عنهم، وأنهم قاموا بما عليهم من عدم الظلم، لكنهم يجهلون أن من الواجبِ عليهم منعَ الظلم وكفَّ يد الظالم، وأنهم بصمتهم وسُكوتهم مشاركون في الظلم حقيقة، فهم مشمولون بشؤم الظلم وعقوبته، ويخطئ من يظن أن الظلم الذي لا يصيبه أو لا يشارك فيه لن يصل إليه، فالظلم إن شاع وانتشر لا بدَّ أن يطال

(١) جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا قُدِّست أمَّةٌ لا يأخذُ الضَّعيفُ فيها حقَّهُ غيرَ متَعتَع) أخرجه ابن ماجه (٢٤٢٦)، أي: لا زُكِّيت ولا طُهِّرَت أمّة لا يأخذ الضعيف فيها حقّه بلا إكراهٍ، ودونَ أن يُصيبَه أذًى يُقلِقُه ويُزعجُه، ودونَ مُمطالةٍ.

(٢) مقدمة ابن خلدون (٣٥٣-٣٥٤).

(٣) المرجع السابق (٣٥٧).

(٤) أخرجه مسلم (٤٩).

(٥) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

(٦) أخرجه البخاري (٦٩٥٢).

من رضي عنه أو سكت، سنة الله تعالى في أنَّ «من أعان ظالمًا سلطه الله عليه».

فالخراب والعقوبة تعمُّ الجميع، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وقال ﷺ مبينًا أثر الظلم في هلاك سائر الأمة: (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد)[١].

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشريبَه وقعيدَه، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض) ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨- ٨١] ثم قال: (كلا والله، لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهَوُنَّ عن المنكر، ولتأخُذُنَّ على يدي الظالم، ولتأطُرُنَّهُ على الحق أطرًا، ولتَقْصُرُنَّهُ على الحق قَصرًا، أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض، وليلعَنَنَّكُم كما لعنهم)[٢].

بل إن الله قد توعَّد الساكتين عن الظلم المتَّخذين موقف المشاهِد المتفرِّج عليه بأشدِّ العقاب والخذلان، قال ﷺ: (ما من امرئ يخذل امرأ مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب نصرته)[٣].

منهج الإسلام في محاربة الظلم ومنعه:

الإسلام دين كامل، لم يترك شيئًا يصلح أمر الناس إلا بيَّنه ووضَّحه، وإقامةُ العدل ونبذُ الظلم أخذ حيزًا كبيرًا من الأحكام والنصوص الشرعية، ومن أبرز معالم المنهج الإسلامي في ذلك:

١. تعظيم العدل في النفوس، وتقبيح الظلم.

٢. ترتيب الجزاء الكبير على العدل، والعقوبة الشديدة على الظلم.

٣. جعل إقامة العدل ومحاربة الظلم واجب كل فرد من الأفراد.

٤. إقامة سائر التشريعات الإسلامية على العدل بين جميع فئات المجتمع وطبقاته.

٥. تنمية الإحساس الفردي بالمسؤولية عن إقامة العدل، والخشية من الله تعالى ومراقبته.

٦. تنمية الوعي الاجتماعي العام بالمسؤولية الأخلاقية في نشر الفضائل ورفض الرذائل ومحاربتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفاظ على أمن المجتمع ومصلحته، وصيانته والقيام بحقوق أفراده.

٧. تقديم القدوة والأسوة الحسنة من حياة النبي ﷺ وسيرته، فقد كان يعمل مع الناس، ويجوع معهم، ويعايشهم ويقضي بينهم بالعدل، ولم يميز بين أشراف الناس وعامتهم في الحكم، حتى قال ﷺ: (وايمُ الله: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[٤].

٨. التربية على العدل وتحبيبه للنفوس، وفي ذلك يأتي ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»، وغيرها من مآثر المسلمين في تحقيق العدالة ورفع الظلم.

فبالتربية تهذَّب النفوس، وتُصقل الطبائع، وتُحمى المجتمعات من تغوُّل القوي، ويُجبر كسر الضعيف.

قال أحمد شوقي:

رَبُّوا عَلَى الْإِنْصَافِ فِتْيَانَ الْحِمَى
تَجِدُوهُمُ كَهْفَ الْحُقُوقِ كُهُولَا

فَهُوَ الَّذِي يَبْنِي الطِّبَاعَ قَوِيمَةً
وَهُوَ الَّذِي يَبْنِي النُّفُوسَ عُدُولَا

وَيُقِيمُ مَنْطِقَ كُلِّ أَعْوَجِ مَنْطِقٍ
وَيُرِيهِ رَأْيًا فِي الْأُمُورِ أَصِيلَا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٧).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٨٤)، وأحمد (١٦٣٦٨).
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

تأصيل

هل للفقه الإسلامي مصادر غير إسلامية؟

د. عمار بن إبراهيم العيسى (*)

الشريعة الإسلامية مستمدةٌ من وحي الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ، ارتضاها سبحانه للبشرية دستورًا، تنظم أمورهم وتحقق سعادتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وشريعةٌ هذه حالها لا يمكن إلا تكون أصيلةً مستقلةً كاملة، ومع ذلك يحاول أعداء الله النيل منها وتشويهها بشبهات وافتراءات من هنا وهناك، فما أبرز هذه الشبهات؟ وكيف يُردُّ عليها؟

مدخل:

الفقهُ الإسلامي مفخرةٌ مِن مفاخرِ الأمة الإسلامية، بل والفكر البشري، فهو أولُ مدونةٍ متكاملةٍ تفصيليةٍ لحقوق الفرد والمجتمع والدولةِ، يجمع بين المصالح الدينيةِ والدنيويةِ والأسريةِ والاجتماعيةِ والأخلاقية، بما لم يكن في الأمم السابقة، بل صار منارةً للأنظمة والقوانين التي أنتجتها الأمم اللاحقة، ومصدرًا لها.

ومع وضوح ذلك وشهادةِ العديد مِن المنصفين مِن غير المسلمين به إلا أن فريقًا مِن المستشرقين وأتباعِهم وجهوا عددًا مِن الاتهامات لهذا العلم الشريف ضمن مجملِ طعونهم في الإسلام، وفي هذا المقال بيانٌ لطبيعةِ الفقه الإسلامي واستقلاله، وتوضيحٌ لحقيقة هذه الاتهامات والإجابة عنها.

وهذه الاتهامات ترجع في مجملها إلى ثلاثة أمور: أحدها: الطعن في أصالة الإسلام واستقلاله في مصادره، والزعم أنه مستمدّ أو مستنِدٌ أو على الأقل متأثر بالقانون الروماني أو بشريعة التوراة. والثاني: نَبْزُ الفقه بالجمود وعدم مواكبته لحاجات العصر، وقصوره عن تحقيق متطلبات المرحلة. والثالث: أنه نشأ متأثرًا بأهواء الملوك والساسة، محقِّقًا لرغباتهم.

(*) أكاديمي، ومتخصص في البحث والتعليم الشرعي.

كلُّ إنسان يمكنُه أن يدعيَ ما شاء مِن دعاوى، ويضع ما شاء مِن فرضيات، ولكنه مطالَبٌ بإثباتها تاريخيًا بالحجةِ المقبولة، فهناك فرقٌ بين وجودِ الاحتمال وإمكانِ حصوله، وبين وقوعِه فعلاً، وما يعوَّل عليه هو الثبوتِ التاريخي، وهذا لا يتحقق إلا بالبيناتِ والشواهدِ التاريخية

هل الفقه الإسلامي نسخةٌ مطورةٌ أو متأثرةٌ بالفقه الروماني؟

زعم بعضُ المستشرقين -وتبعهم بعضُ الكتاب والمتربصين والإعلاميين- أن الفقه الإسلامي مستمَدٌّ مِن القوانين الرومانية التي كانت مطبقة في بلاد الشام قبل دخول الفتح الإسلامي، أو على الأقل هو متأثرٌ بها إلى حد ما، وحاولوا أن يتلمسوا ما يبررون به هذا الزعم بوضع احتمالاتٍ لكيفية وقوعِ هذا التأثر، فقالوا:

١. لعلَّ النبي ﷺ اطَّلع على القانون الروماني في رحلاته التجارية قبل البعثة إلى البلاد الخاضعة لحكم الرومان.

٢. أو تعلَّم بعض تلك القوانين مِن العبيد الروم الذين كانوا في الحجاز.

٣. أو أن بعضَ الفقهاء المسلمين ربما تعلَّموا تلك القوانين في المدارس القانونية الرومانية التي كانت قائمةً في بعض البلاد كالشام.

٤. أو أنَّ الأعرافَ السائدة في البلاد التي افتتحها المسلمون كانت قائمةً على التنظيمات الرومانية، فاعتبرها المسلمون واستندوا إليها.

٥. أو أنَّ النُّظم الرومانية أثَّرت في أعراف العرب وأحكامهم قبل الرسالة، ثم جاء الإسلام فأقر طائفةً منها.

قالوا: ويشهد لهذا التأثر وجودُ بعض المبادئ القضائية المشتركة بين القانون الروماني والنظام الإسلامي كمطالبة المدعي بالبينة، وتوجه اليمين إلى المنكِر.

ويمكن أن يُبدأ الجوابُ عن هذه الادعاءات بما خُتم به كلامهم، وهو أن البينةَ على المدعي، بمعنى أن ما ذكروه لا يعدو أن يكون مجردَ افتراضات واحتمالات، وكل إنسان يمكنُه أن يدعيَ ما شاء مِن دعاوى، ويضع ما شاء مِن فرضيات، ولكنه مطالَبٌ بإثباتها تاريخيًا بالحجةِ المقبولة:

والدعاوَى إذا لم يقيموا عليها
بـيـنـاتِ أبـنـاؤهـا أدعـياءُ

فهناك فرقٌ بين وجودِ الاحتمال وإمكانِ حصوله، وبين وقوعِه فعلاً، فالذي يمكن البناءُ عليه هو الثاني مِن الوقوع الفعلي والثبوتِ التاريخي، وهذا إنما يتحقق بإقامةِ البيناتِ والشواهدِ التاريخية، والإثباتات الواقعية، قال تعالى في تقرير هذا المبدأ العظيم ردًا على مَن أطلق ما شاء مِن الدعاوى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وهؤلاء المدَّعون لهذه الاحتمالاتِ لم يأتوا بما يثبتُها، بل الوقائعُ التاريخية تُكذِّب هذه الادِّعاءات، وتبين خطأ هذه الافتراضات:

١. فالنبي ﷺ نشأ أُميًّا وفي بيئةٍ أُمية فكيف تلقى القانونَ الروماني؟ وعلى يدِ مَن؟ ولم يكن له رحلاتٌ كثيرة إلى خارج بلاده، ولا كان يمكث هناك الـمُدَدَ الطويلة، فلم يكن له قبل البعثة إلا رحلتان، وكانت الأولى وهو طفل ابنُ تسع سنين، وقابل فيها راهبًا نصرانيًا للحظاتٍ قليلةٍ، ولم يكن ذلك الراهب مِن رجال القانون، فكيف تلقى عنه القانون الروماني في تلك اللحظات؟!

ثم كانت الرحلة الثانية وهو ابن خمسٍ وعشرين سنة مِن عمره، وكان مشغولاً فيها بالتجارة للسيدة خديجة ﵂، وكانت أيضًا لمدةٍ محدودةٍ، ولم يُنقل -فضلاً عن أن يَثبتَ- أنه التقى فيها بعضَ رجالِ القانون أو غيرهم ممن يمكن أن يتلقى عنهم علومَ الرومان وقوانينَهم، ولا حكى ذلك أحد ممن كان معه في تلك الرحلة.

٢. ثم مَن هو ذلك الشخص الذي علم النبي ﷺ تلك القوانين في الحجاز، وغالبُ العبيد الذين كانوا يُجلبَون إلى تلك البلاد إنما كانوا مِن الصنّاع والعمال والعامة، لا مِن رجالِ القانون والفكرِ في بلادِهم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، فلو كان النبي ﷺ يستند فيما يجيء به مِن الوحي إلى أولئك الأعاجم لما كان القرآن بهذه الفصاحة والبلاغة العربية التي أعجزت البشرية

عن معارضته والإتيان بمثله، ولو وُجد شيء من ذلك لطار بذلك الأعداءُ المتربصون على كثرتهم.

٣. وأما المدارسُ القانونيةُ الرومانية فالمعروفُ تاريخيًا أنها أُغلقت قبل فتح المسلمين لتلك البلاد بأكثرَ من قرنٍ، بل كانَ ذلك قبلَ ميلاد النبي ﷺ بمدةٍ.

٤. وبعد أن فتح المسلمون البلادَ التي كانت خاضعةً لحُكم الرومان أرسلوا إليها القضاةَ الذين تفقهوا على علماءِ الشريعة، وكانوا يستندون في أحكامِهم إلى الكتاب والسنة والسوابق القضائية للخلفاء الراشدين، ولم يَنقل أحدٌ مِنَ المؤرخين أن قضاةَ المسلمين كانوا يستندون إلى شيءٍ من قوانين الرومان في أحكامِهم، بل لا يوجدُ في شيء من مدونات الفقهِ والقضاءِ الإسلامي -على كثرتِها- ما يشيرُ إلى وجود أحكامٍ مستمَدةٍ من القوانين الرومانية بخلاف الكتب التي تأثرت بالعلوم المترجمة من الأمم الأخرى كاليونان والفرس وغيرهم في الفلسفة والمنطق والطب وغيرها؛ فهي مصرحةٌ بذلك منذُ دخولِ ذلك التأثرِ، وأيضًا لم يثبت أن كتب القانون الروماني تُرجمت إلى اللغةِ العربية التي يمكن أن يفهمَها فقهاءُ الإسلام، أو إلى اللغات المحلية للبلادِ التي افتتحها المسلمون. والثابتُ تاريخيًا أن تدوينَ العلوم الإسلاميةِ كان في القرن الثاني الهجري وما بعده، وكانت العناية بالعلوم الإسلامية المحضَةِ كالحديث والفقه والتفسير، ولم يكن في تلك المدونات أي أثرٍ لمصادرَ غيرِ إسلاميةٍ كالقانون الروماني وغيره.

بل إن الشريعةَ الإسلاميةَ تحرّمُ الاستنادَ في الحكم والقضاء إلى غير ما أنزل اللهُ عز وجل على نبيه ﷺ، وتتوعد مَن خالف ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقد غضب النبي ﷺ عندما جاءه أحدُ أصحابه بصحيفةٍ من التوراة، وقال: (والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا، ما وسعه إلا أن يتبعَني)[١].

وأما ما يتعلق بأعرافِ البلادِ التي افتتحها المسلمون وعاداتِ أهلِها فإن علماءَ المسلمين وجدوا في تلك البلاد أعرافًا مختلفة، فعرَضوا هذه الأعرافَ على ميزانِ الشريعة، فما خالفها ردوه، وما لم يخالفها أقروه، وليس في هذا ما يعيب؛ لأن الحُكمَ أولاً وآخرًا لأحكامِ الشريعة.

٥. وكذلك ما وُجد من أعراف العربِ قبل الإسلام فإنها محكومةٌ بقانونِ الوحي، ومعيارِ الشريعة، وادعاءُ أن مصدرَ هذه الأعراف والأحكام هو القانون الروماني يفتقرُ أيضًا إلى إثبات.

٦. ووجودُ شيءٍ من التشابهِ في المبادئ العقليةِ أو الفطريةِ لا يُثبت وقوعَ التأثر أو الاستمداد بين الأحكام الإسلامية والقانون الروماني، فهي مبادئُ إنسانيةٌ عامة لتحقيق العدلِ تشترك فيها الجماعاتُ البشرية، وقد أقرتها الشرائعُ السماويةُ.

٧. الثابت تاريخيًا هو العكس تمامًا، فقد ذكر عددٌ من المؤرخين أن قضاةَ كثيرٍ من البلاد غير الإسلامية المجاورة لبلادِ الإسلام استفادوا من الإجراءاتِ والمبادئ القضائية الإسلامية فطبقوها في بلادِهم لما تضمنته من العدلِ وحفظِ الحقوق، بل إن كثيرًا من القوانين الغربية الحالية قد استندت واستفادت من المدونات الفقهية الإسلامية.

٨. وجودُ الفروق الجوهرية الواسعة في الأصول والفروع بين أحكامِ الشريعةِ والقانون الروماني بالقدر الذي لا يقارَنُ بحالٍ بالقدرِ الذي يُزعمُ من وجود التشابهِ.

لم يَنقل أحدٌ من المؤرخين أن قضاةَ المسلمين كانوا يستندون إلى شيءٍ من قوانين الرومان في أحكامِهم، بل لا يوجدُ في شيء من مدونات الفقهِ والقضاءِ الإسلامي ما يشيرُ إلى وجود أحكامٍ مستمَدةٍ من القوانين الرومانية، ولم يثبُت أن كتب القانون الروماني تُرجمت إلى اللغةِ العربية مطلقًا

هل الفقه الإسلامي مستنِدٌ إلى شريعة التوراة أو التلمود؟!

يزعم بعضُ المستشرقين وأتباعُهم أن الشريعةَ الإسلامية تستند إلى اليهودية (التوراة أو التلمود) في كثيرٍ من التشريعات والأحكام والنظم، حتى قال بعضهم: «اليهودية لها تأثيرٌ عظيم جدًا على تكوين

(١) أخرجه أحمد (١٥١٥٦).

أبرز ركائز الرد على الشبهات المثارة حول الفقه الإسلامي

١ أصالة الإسلام واستقلاله في مصادره

٢ كمال الشريعة ومناسبتها لكل زمان ومكان

٣ علو الشرعية على الحكام والساسة وأهوائهم

الإسلام»، بل بالغ بعضهم فقال: الإسلام ليس إلا «يهودية ذات نزعة عالمية!».

واستندت هذه المزاعم إلى عدة مبررات، ومنها:

١. دعوى أن الذين دخلوا مِن اليهود في الإسلام نقلوا معهم ثقافتهم وعلومَهم، ونشروها بين المسلمين، ومِن هنا تسرَّبت تعاليمُ التلمود إلى الفقه الإسلامي.

٢. ما يُلحظ مِن وجود تشابهٍ واشتراكٍ بين التشريع الإسلامي وفقه التلمود اليهودي، وقالوا: بما أن الإسلامَ هو المتأخر في الزمان، فيكون هو المتأثِّر بها.

٣. زعمُ تأثرِ بعض علماء المسلمين في تبويب الفقه الإسلامي ببعض كتب اليهود، ومن ذلك ادِّعاء أن الإمام محمد بن الحسن الشيباني استفاد مِن كتاب المشنا اليهودي في تبويب وتصنيف كتبه.

وأمام هذه الدعاوى نسجِّل ما يلي:

مثلُ هذه الدعاوى العريضة تدلُّ على نقصٍ كبيرٍ في فهم الشريعة الإسلامية، ومعرفة طبيعتِها، وكيفية تكوينِها وبنائها، ثم تدوينها، فالأحكامُ الشرعية في الإسلام تتمتَّع بمقاومةٍ عاليةٍ لأي مصادرَ غيرِ إسلاميةٍ بسبب النظامِ الصارمِ الذي قرَّره الإسلامُ في مرجعية الأحكام وانحصارِها في الكتاب والسنة وما دار في فلكِهما.

فقد كانت الأحكامُ تنزل عبر الوحي مفرقة في سنين طويلة بحسب الوقائع وحاجات المكلَّفين، وكان النبي ﷺ يبينها للناس ويطبقها لهم، ولم يكن النبي ﷺ يرجع إلى أحدٍ مِن أهل الكتاب ليسألَهم عن حكمٍ شرعي حتى حينما يتأخر نزولُ الوحي، بل إنَّ اليهودَ هم الذين كانوا يأتون إلى النبي ﷺ ليسألوه عن بعض المسائل امتحانًا لصدقِ نبوتِه.

وحينما كان ينقل بعضُ الصحابةِ شيئًا مِن أعمال أو أحكام غير المسلمين فإن النبي ﷺ كان يبادرُ بالإنكارِ لذلك، ويبينُ مخالفةَ ذلك لدين الإسلام، كما حصل حينما رجع معاذُ بنُ جبل رضي الله عنه من الشام، فسجد للنبي ﷺ، فسأله عن ذلك، فأخبره أنه رأى النصارى يفعلون ذلك بعظمائهم، فنهاه عن ذلك[1]، وحينما جاءه عمر رضي الله عنه بصحيفةٍ مِن التوراة، وقال: إنَّا نسمع أحاديثَ مِن يهود

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٥٣) وأحمد (١٩٤٠٣).

تُعجبنا أَفَتَرى أن نكتبَ بعضَها؟ فقال: (أمتهوِّكُون أنتم كما تهوَّكت اليهود والنصارى؟ – أي: أمتحيِّرون أنتم في دينِكم حتى تحتاجوا الرجوع إلى أهل الكتاب؟- لقد جئتكم بها بيضاءَ نقية، ولو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي)[1].

وعندما أذِن النبي ﷺ بالتحديث عن أهل الكتاب إنما كان ذلك فيما يتعلَّقُ بقَصص الأنبياء وأحداثِ التاريخ ونحو ذلك دون التشريعات والأحكام، مِن غير تصديقهم في ذلك ولا تكذيبِهم، فكان بعد ذلك مَن يحتمل أن يكون حديثُه مأخوذًا عن أهل الكتاب يُتوقف في حديثِه، ولا يقبله العلماء، ومِن ثَمّ ظهر تتبعُ العلماء لما سمي بالإسرائيليات التي ذُكرت في كتب التفسير والتاريخ استئناسًا للتنبيه عليها، والتحذير مِن قبولها.

وحينما تناول علماء أصول الفقه الخلافَ في مسألةِ الاعتماد على الشرائع السابقة في الأحكام بينوا أن المقصودَ هو ما ذُكر في أدلة الكتاب والسنة منسوبًا إلى الأديان السابقة، ونبهوا على اتفاق الأمة على أن ما يُنقل إلى المسلمين عن الأمم السابقة مِن غير طريق الكتاب والسنة فلا عبرةَ به، ولا التفاتَ إليه، ولم يقل أحدٌ مِن علماءِ الشريعة على مرّ العصور بالرجوع إلى كتب اليهود والنصارى في تقرير أي حكمٍ شرعي.

اتَّفق علماء الإسلام على أنَّ ما يُنقل إلى المسلمين عن الأمم السابقة مِن غير طريق الكتاب والسنة فلا عبرةَ به، ولا التفاتَ إليه، ولم يقل أحدٌ مِن علماءِ الشريعة على مرّ العصور بالرجوع إلى كتب اليهود والنصارى في تقرير أي حكمٍ شرعي

ويجاب عن النقاط الثلاث المذكورة سابقًا بما يلي:

١. من الثابت في المصادر الحديثية والتاريخية أن اليهودَ وغيرَهم حينما كانوا يدخلون في الإسلام فقد كانوا يخضعون للأحكام الشرعية، ويسلمون لها تسليمًا مطلقًا، وعندما ينقلون أخبارًا عن أنبيائهم فقد كان الصحابة يعرضون ذلك على الكتاب والسنة فلا يقبلون إلا ما وافقهما.

ومن الأمثلة على ذلك: ما ثبت عن عمران بن حصين ﷺ: أنه أخبر عن رسول الله أنه قال: (الحياءُ خيرٌ كلُّه)، فقال بُشير بن كعب: «إنا لنجد في بعض الكتب أن منه سكينةً ووقارًا لله، ومنه ضعفٌ»، فغضب عمرانُ حتى احمرتا عيناه، وقال: «ألا أُراني أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتعارض فيه؟!»[2].

٢. أما وجودُ التشابه في بعض الأحكام فافتراضُ أن فقهاء الإسلام استمدوا تلك الأحكام من الشريعة اليهودية لا تسنده وقائع التاريخ، فعلماءُ الإسلام لم يكن بمقدورهم الوقوف على التراث التشريعي اليهودي في عصر نشأة الفقه وظهور المذاهب؛ لأن كلاً مِن التوراة والتلمود كان مكتوبًا بلغة غير عربية، ولم يعتن الفقهاء المسلمون بتعلم اللغات الأجنبية لعدم حاجتهم إليها، وعدم تيسر أسباب دراستها، فبقيت تشريعات اليهود مجهولة عند فقهاء المسلمين عدة قرون بعد تدوين الفقه واستقرار أحكامه.

وأيضًا فليس سببَ هذا التشابهِ استمدادُ المسلمين مِن كتب اليهود وغيرهم، بل سببُه اتحادُ المصدر، وهو الوحي الإلهي، فالذي أمر اليهودَ بهذه الأحكام هو الذي كلف بها المسلمين، ومِن هنا جاء الإسلامُ بموافقةِ الشرائع السابقة التي لم تُحرف وأقرها الله في كتابه كمشروعية القصاص مِن الجاني، أو عمل بها النبي ﷺ كصوم يوم عاشوراء شكرًا لله على نجاةِ موسى عليه السلام مِن فرعون.

ومِن جهة أخرى فلا مجالَ للمقارنة بين قدر التميُّز والاستقلال الكبير للأحكام الإسلامية وقدر التشابه القليل الذي أقرَّه الله عزَّ وجلَّ من الشرائع السابقة وجعله باقيًا في دين الإسلام.

٣. وسبق أن فقهاء الإسلام لم يكن بمقدورهم الاطلاع على تفاصيل أحكام شريعة اليهود، ومن ذلك أن الإمام محمد بن الحسن الشيباني لم يُعلم أنه كان يتكلم بغير العربية، أو كان يطالع كتبًا غير إسلامية، ثم إن كتبه موجودة مطبوعة، ومَن يتأملُها يجد أنها إسلامية بامتياز، وأن الإمام الشيباني كان مبدعًا في التأليف والتبويب، وليس هناك ما يثبت تأثرَ

(١) أخرجه أحمد (١٥١٥٦)، وينظر في تخريجه وطرقه: إرواء الغليل (١٥٨٩).
(٢) أخرجه مسلم (٣٧).

كتبه بمصادرَ أخرى، أو وجود تشابهٍ بين تبويبها وتبويبات كتب اليهود، فالأمر لا يعدو أن يكون مجرد ادعاء عارٍ عن الدليل[١].

مَن يتهم الفقه الإسلامي بالجمود فهو لم يدرك طبيعةَ الفقهِ الإسلامي، ولا عرف حقيقةَ عملِ المجتهدين في الاستنباط الذي لا يتحقَّق إلا بإدراكِ الواقعِ الذي يُراد معرفةُ حكمِ الشريعة فيه، ويُقصَدُ تنزيلُ الحكمِ عليه

هل الفقه الإسلامي جامد؟

الفقهُ الإسلامي نتاجُ استنباطِ واجتهادِ الفقهاء، والاستنباطُ عمليةٌ تفاعليةٌ مستمرةٌ بين نصوص الشريعة وواقعِ الناس واحتياجاتهم المتجددة مِن خلال جهود العلماء المتضافرة في توصيف وتكييف تلك الوقائع، وعرضِها على النصوص والأدلة، والبحث عن تحقق الأوصاف المقتضية للأحكام في تلك الوقائع، فالتجدد في استنباطات الفقهاء المناسبة لواقعهم مِن خصائص الفقه الإسلامي، ومِن ثَمّ فإن مَن يتهم الفقه الإسلامي بالجمود فهو لم يدرك طبيعةَ الفقهِ الإسلامي، ولا عرف حقيقةَ عملِ المجتهدين في الاستنباط الذي لا يتحقق إلا بإدراكِ الواقعِ الذي يُراد معرفةُ حكمِ الشريعة فيه، ويُقصدُ تنزيلُ الحكمِ عليه.

وقد قرر أهلُ العلم أن أحكامَ الشريعة نوعان: نوعٌ ثابتٌ لا يقبل التغيرَ كالعقائد وأصول العبادات ومقاديرها والكفارات، ونوعٌ يقبل التغيرَ والتطورَ، وهو ما علّقه الشارع بالمصلحةِ أو العُرفِ ونحوها.

يقول ابن القيم: «الأحكامُ نوعان: نوعٌ لا يتغير عن حالةٍ واحدةٍ هو عليها، لا بحسب الأزمنة، ولا الأمكنة، ولا اجتهادِ الأئمة، كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدَّرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغييرٌ ولا اجتهادٌ يخالف ما وُضع عليه. والنوع الثاني: ما يتغيرُ بحسب اقتضاءِ المصلحة له زمانًا ومكانًا وحالاً، كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها. فإن الشارعَ ينوّع فيها بحسب المصلحة..»[٢].

وقد ضمّن الفقهاءُ هذا المعنى في قاعدةٍ فقهيةٍ نصوا فيها على قابلية الأحكام الشرعية للتغيُّر بتغيُّرِ ما بُنيت عليه، فقالوا: «لا يُنكَر تغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان».

والأحكامُ التي تتغير بتغير الزمان لها وصفان، إذا لم يتحققا، أو فات أحدُهما: لم تكن داخلةً في القاعدة، بل تكون مِن الأحكام الثابتة، وهذان الوصفان هما:

الأول: أن يكون الحكمُ مِن المسائلِ الاجتهادية. وحيثُ وُجد الظنُّ وانتفى القطعُ واليقينُ ثبوتًا أو دلالةً ساغ الاجتهادُ مِن المؤهلين لخوض غماره.

الثاني: أن يكون مِن الأحكام المبنيةِ على العُرف والعادة أو المصلحةِ والقياس.

قال د. محمد الزحيلي: «اتفقت كلمةُ المذاهب على أن الأحكامَ التي تتبدَّل بتبدُّل الزمان وأخلاق الناس هي الأحكامُ الاجتهادية التي بُنيت على القياس ودواعي المصلحة، فإذا أصبحت لا تتلاءم وأوضاع الزمان ومصلحة الناس وجب تغييرُها»[٣].

وقال الشيخ أحمد الزرقا مفتي حلب وفقيهُها: «لا يُنكَر تغير الأحكام بتغير الزمان. أي: بتغيّر عُرفِ أهلِها وعادتِهم، فإذا كان عرفُهم وعادتُهم يستدعيان حُكمًا، ثم تَغَيّرا إلى عُرفٍ وعادةٍ أخرى فإن الحكمَ يتغير إلى ما يوافق ما انتقل إليه عرفُهم وعادتهم»[٤].

طبيعة الأحكام السياسية تأبى تقييد الوسائل والإجراءات التي لا بدَّ مِن تركها للأمة بحسب معطيات الواقع، ومقتضيات المرحلة، والمقصودُ هو ضبطُها مِن حيث المبادئ والغايات، ومِن حيث الحدود العامة والتنبيه على المصالح المهمة، وضروبِ الفساد الذي يجب تَجنُّبه والبعدُ عنه

(١) يراجع في أصالة التشريع الإسلامي، كتاب: من افتراءات المستشرقين على أصول العقائد في الإسلام، د. عبد المنعم فؤاد، ص (١٢٦-١٣١)، وكتاب: دفاع الإسلام ضد مطاعن التبشير، د. محمد الفاتح مرزوق، ص (١٠٥-١١٤)، والقرآن ومطاعن الرهبان، د. صلاح الدين الخالدي، ص (٢٣٨-٢٥٦، ٥٧١-٦٠٢).

(٢) إغاثة اللهفان (١/٣٣٠-٣٣١).

(٣) القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، د. محمد الزحيلي (١/٣٥٥).

(٤) شرح القواعد الفقهية، لأحمد الزرقا، ص (٢٧٧).

الفقهُ ومواكبة متغيراتِ العصر وحاجاته:

هل يتسع الفقه لبيان أحكام البيع والشراء وأحكام الأسرة، لكنه يضيق عن أحكام السياسة؟

جاءت الشريعة الإسلامية لتعيدَ صياغةَ جميعِ جوانب حياةِ الإنسان، ويشمل ذلك حياةَ الفردَ والجماعة بما في ذلك الأسرة والمجتمع وصولاً إلى الدولة، فأحكامُ الشريعة شاملةٌ لكل ما يحتاجه الإنسانُ مِن أحكامٍ ونُظُمٍ في جميع حالاته.

قال ابن القيم: «فلِرسالتِه ﷺ عمومان محفوظان، لا يتطرق إليهما تخصيصٌ: عمومٌ بالنسبة إلى المرسَل إليهم، وعمومٌ بالنسبة إلى كل ما يحتاج مَن بُعث إليه مِن أصول الدين وفروعِه، فرسالتُه كافيةٌ شافيةٌ عامةٌ، لا تُحْوِجُ إلى سواها، ولا يتم الإيمانُ به إلا بإثباتِ عموم رسالتِه في هذا وهذا، فلا يخرج أحدٌ مِن المكلفين عن رسالتِه، ولا يخرج نوعٌ مِن أنواعِ الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عمّا جاء به»[1].

وقد جاء في كل جانبٍ مِن جوانب الحياةِ ما يناسبها مِن النصوصِ والأحكام إجمالاً وتفصيلاً، ثباتًا وتغيرًا بحسب طبيعة تلك الجوانب، فعلى سبيل المثالِ: لما كانت العباداتُ مبناها على التقرب إلى الله بما شرعه، ولا مجال للرأي فيها، فقد جاءت نصوصُها مفصلة في بيان أحكامها، وموسعةً في وصف تفاصيلها وشروطِها وأحوالها، ولما كانت المعاملاتُ من البيع والشراء والإجارة والشركات وغيرها إنما تراد لسدِّ حاجات الناس المختلفة فقد جُعل الأصلُ فيها الإباحةُ، وجاءت النصوصُ بضبطِ تلك المعاملات بما يمنع الغِشَّ والغررَ والرِّبا وسائرَ الوجوه التي تؤدي إلى الظلم والعداوة ووقوع النزاعات بين الناس.

وكذلك الأحكام السلطانية والممارسات السياسية هدفُها في الإسلام تحقيقُ مصالح الناس في دينهم ودنياهم، ودرء المفاسد عنهم، فجاءت الأدلة الشرعية متناسبة مع ذلك، فأرست القواعد والقيم العامة كالعدل والشورى والنصيحة واعتبار سلطة الأمة مِن خلال ممثليها وغير ذلك، ووضعت كثيرًا مِن الأحكام والمحددات التي لا بد مِن التقيدِ بها في الأحكام الدستورية والتشريعية والقضائية والاقتصادية والاجتماعية، ومع ذلك فقد تركت مساحةً واسعةً في تحديد الوسائل والهياكل والترتيبات والإجراءات بما يحقق المصلحةَ المعتبرة، ولا يخالف القواعد الشرعية، ولا يتجاوز الأدلةَ والأحكامَ، ومِن هنا بين العلماءُ أنه لا يُشترط في

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم (٤/٢٨٥).

السياسة حتى تعتبر شرعيةً أن تأتي منصوصةً في أدلة الكتاب والسنة وكلام العلماء، بل يكفي أن تحققَ المصلحةَ ولا تخالفَ الشريعةَ؛ لأن المقصودَ من السياسة الشرعية هو تحقيقُ المصالحِ، ودرءُ المفاسد كما سبق.

ولهذا بيَّن بعضُ أهل العلم ما يُعتبر من السياسة الشرعية وأنه «ما كان فِعلاً يكون معه الناس أقربَ إلى الصلاح، وأبعدَ عن الفساد، وإن لم يضعه الرسولُ ﷺ، ولا نزل به وحيٌ»[1].

وفي معناه قول الشيخ عبد الوهاب خلاف رحمه الله في تعريف السياسة الشرعية: «تدبيرُ الشؤون العامة للدولة الإسلامية بما يكفل تحقيقَ المصالحِ ودفعَ المضارِّ، مما لا يتعدى حدودَ الشريعةِ أو أصولَها الكلية، وإن لم يتفق وأقوال الأئمةِ المجتهدين»[2].

وهذا يدل على أن طبيعة الأحكام السياسية تأبى التقييدَ والتحديدَ للوسائل والإجراءات التي لا بد من تركها للأمة بحسب معطيات الواقع، ومقتضيات المرحلة، وأن المقصودَ هو ضبطُها من حيث المبادئ والغايات، ومن حيث الحدود العامة والتنبيه على المصالح المهمة، وضروبِ الفساد الذي يجب تجنُّبه والبعدُ عنه.

> **العلماء مُجمِعون إجماعًا قطعيًا على أنه لا يجوز أن يُغيَّر شيءٌ من أحكام الشريعة من أجل أي أحدٍ من الناس، ولو كان حاكمًا، ولهذا كثُرت حوادثُ إنكارهم على السلاطين ومخالفتِهم لهم فيما يخالفون فيه شرعَ الله تعالى، وفي بيان الحق، والصدعِ به في وجوههم**

هل الفقه متأثر بسياسات الحكام؟

يقوم التصورُ الإسلامي للدولة على أن كل فردٍ فيها سواءٌ كان حاكمًا أو محكومًا هو عضو في بناء الأمة وله حقوق، وعليه واجباتٌ بحسب ما يتحمل من مسؤوليات، فلا يجوز أن يَتجاوز في أخذِ ما ليس له من الحق لكونه حاكمًا، كما لا يجوز أن يُبخسَ من حقوقِه لكونه محكومًا.

فالحاكمُ كغيره في كونه عبدًا لله تعالى، خاضعًا لشرعه، ملزَمًا بأحكامِه، فإذا أمر بما يخالف شرعَ الله لم يجز لأحدٍ أن يطيعَه في ذلك، ولا أن يساعده في تحقيقِ المعصية.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (لا طاعةَ في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف)[3].

ومع اختلاف العلماء في تقدير الأصلح والأوفق للقواعد الشرعية من الدخولِ على السلاطين ومخالطتِهم ونُصحِهم أو اعتزالِهم والبعدِ عنهم إلا أنهم مجمعون إجماعًا قطعيًا على أنه لا يجوز أن يُغيَّر شيءٌ من أحكام الشريعة من أجل أحدٍ من الناس كائنًا مَن كان، ولو كان حاكمًا، ولهذا كثرت حوادثُ إنكارهم على السلاطين ومخالفتِهم لهم فيما يخالفون فيه شرعَ الله تعالى، وقد نقلت كتبُ التاريخ مواقفَ كثيرةً للعلماء والأئمة في بيان الحق، والصدعِ به.

ومن ذلك أن الخليفةَ الأموي يزيد بن عبد الملك ولَّى على العراق وخراسان عمرَو بنَ هبيرة الفَزاري، فاستدعى ابنُ هبيرة الحسنَ البصري ومعه غيره ليستشيرهم، وذكر لهم أنّ يزيدَ يكتب إليه بالأمر فيَعمل على تنفيذه، وسألهم عن رأيهم، فقالَ له بعض الحاضرين قولاً لينًا، فسأل ابنُ هبيرة الحسنَ البصري عن رأيه، فقال: «يا ابنَ هبيرة خفِ اللهَ في يزيد، ولا تخف يزيدَ في الله؛ فإن اللهَ يمنعُك من يزيد، ولا يمنعُك يزيدُ من الله، ويوشك أن يَبعث الله إليك ملَكًا فيُزيلُك عن سريرك، ويُخرجُك من سعةِ قصرك إلى مضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملُك! يا ابنَ هبيرة، إياك أن تعصيَ الله...، فإنَّه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق»[4].

وحوادثُ سَجنِ العلماء وامتحانِهم والتضييق عليهم معروفةٌ مشهورةٌ، ولم يحملهم ذلك على تغيير الدين، أو الخضوع لأهواء الملوك والحكام، ومن ذلك محنةُ الإمام أحمدَ المشهورة في فتنة القول بخلق القرآن، بل إن الإمامَ مالكًا لم يقبل الذهاب إلى مجلس الرشيد ليحدثه بكتابه الموطأ، بل طلب منه أن يأتي بنفسه إلى مجلس العلم؛ ليسمع الحديثَ مع الناس؛ حفاظًا على هيبة العلمِ ومكانته.

(١) الطرق الحكمية، لابن القيم، ص (١٢)، نقلًا عن ابن عقيل.
(٢) السياسة الشرعية، لعبد الوهاب خلاف، ص (٢٠).
(٣) أخرجه البخاري (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠).
(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، لليافعي (١٨٢/١).

قراءة (تاريخية) في قول عمرو بن العاص رضي الله عنه عن خصال الروم!

د. محمد عبد الله السلومي (*)

في البحث عن أسباب بقاء الدول وزوالها تُستحضر المقارنة بين دولتي الروم والفرس، القوتين العُظمَيين وقتَ البعثة النبوية المباركة، وتبرُز لنا مقولة الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ في الروم، والتي بقيت تتردد على الألسن كلما جاء ذكر الروم وبقاء سلطانهم ، فمن هم الروم اليوم؟ وما مدى تمثلهم للصفات المذكورة في المقولة؟ وهل ما زالت كلمات ابن العاص ﷺ تصدق عليهم؟

مدخل:

عُرف عن عموم النصارى بعض الطبائع النفسية، وبعض القيم في العطاء، وهي ذات جذور تاريخية ترتبط في غالبها بالديانة، وقد لَفَت الانتباه إلى هذه الطبائع الفطرية القديمة لدى الروم النصارى آنذاك الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ حينما قال عنها في الأثر الموقوف: «إنَّ فيهم لَخِصالاً أربعًا: إنَّهم لأَحْلَمُ النّاسِ عِندَ فِتْنَةٍ، وأَسرَعُهُم إفاقَةً بَعدَ مُصِيبَةٍ، وأوشَكُهُم كَرَّةً بَعدَ فَرَّةٍ، وخَيرُهُم لِمسكِينٍ ويَتِيمٍ وضَعِيفٍ، وخامِسَةٌ حَسنةٌ جميلةٌ: وأَمنَعُهُم مِن ظُلمِ المُلوكِ»[1].

وهذه الخصال تُعدُّ (صفات وطبائع ذاتية في حروبهم)، وأخرى (قيم أخلاقية في حياتهم). وهي بمجملها تؤهل للهيمنة والقوة عند الروم سابقًا، ولدى الغرب لاحقًا، لا سيما أزمنة الاحتلال البغيض لمعظم دول العالم الإسلامي، وكذلك ما بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م. وهذا من الاستقراء والاستنتاج الناشئ عند عمرو بن العاص ﷺ -حول الطبيعة الرومية- سواءً من خلال احتكاكه مع روم الشام ومصر النصارى، أم السماع عنهم أثناء تجارته مع هذه البلاد.

تحرير المصطلح:

إن أول ما يتبادر إلى الذهن عند تحرير المصطلح: التساؤل عن المعني بالروم في الأثر المروي عن عمرو بن العاص ﷺ هل المقصود

(*) باحث في الدراسات التاريخية ودراسات العمل الخيري والقطاع الثالث.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٨)، وفي رواية أخرى لمسلم (وخَيْرُ النَّاسِ لِمَساكِينِهِمْ وضُعَفائِهِمْ).

بهم جنسٌ بشريٌّ مُعيَّن؟ أم المقصود أرباب الدين النصراني بتحريفاته آنذاك؟ وهل هذا الوصف ينطبق على الغرب اليوم بعد التخلي عن دينهم وما فيه من قِيَم أخلاقية واجتماعية؟ فالوصف عمومًا لا إشكال فيه، لكن إسقاطه الدائم على جنس مُعين إشكالية تاريخية تتطلب البحث والدراسة.

ومما يلحظ هنا أن لفظة «الروم» لم تكن تطلق تاريخيًا على روم الفرنجة فحسب، بل على كل من كان على دينهم وتحت سلطانهم، فالغساسنة بالشام -على سبيل المثال- كانوا يُعدُّون عند كثير من المؤرخين من الروم، وعندما خاض الصحابةُ ﷺ معركة مؤتة في العام الثامن الهجري، إنما كان ذلك حسب الروايات التاريخية مع روم الشام الغساسنة النصارى، وهم من العرب الذين حكموا الشام باسم البيزنطيين!

وكانت الأناضول (تركيا الحديثة) سكنًا وموطنًا للروم السلاجقة، وهم جنس من الأتراك، كما أن إحدى عاصمتي الروم قديمًا كانت القسطنطينية في تركيا (إسطنبول حاليًا)، حيث كانت العاصمة الشرقية للروم، التي تضم الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية للروم (آياصوفيا). وهناك الرومان في روما، ولم يكن قد حصل احتكاك عمرو بن العاص ﷺ بهم آنذاك. ولهذا فتنوع جغرافية الروم وأجناسهم المتعددة مما يُرجِّح -والله أعلم- ارتباط مصطلح الروم بالديانة النصرانية، وليس بجنس بشري معين مُحدَّد[1].

> **للأقوام والشعوب طبائع خاصة بها، كما بيّن ذلك علماء الاجتماع منذ القدم، وفوق ذلك هناك قيم تنتشر في المجتمعات لأسباب دينية، أو موروثات قومية، أو اجتماعية، أو اقتصادية وغيرها**

طبائع أم قِيَم؟

وثَمة تساؤلٌ آخر يستحق الدراسة: هل الخصال الواردة في أثر ابن العاص ﷺ هي طبائع أم قِيَم نافعة للآخرين؟ وهل هذه الطبائع تتلازم مع جنس الروم أيًا كانوا؟ مما يعني اتصافهم بها في كل حين وعلى أي حال، أم هي قيم ترتبط بالدين النصراني يؤمنون بها ويتمسكون بتطبيقها ما داموا على دينهم، وقد تظهر أحيانًا، وقد تغيب أحيانًا أخرى؟ وهل هذه الخصال تُعدُّ قِيَمًا مُثلى لهم خاصة بهم دون سواهم؟

لا شك أن للأقوام والشعوب طبائع خاصة بها، كما بين ذلك علماء الاجتماع منذ القدم، بالإضافة إلى أن هناك قيمًا تنتشر في المجتمعات لأسباب دينية، أو موروثات قومية، أو اجتماعية، أو اقتصادية وغيرها. وكما سبق أن الروم لم يكونوا في ذلك الوقت جنسًا واحدًا، بل أقوامًا مختلفين في أجناسهم وطبائعهم، وربما تجمعهم الديانة النصرانية.

عدلٌ مع الخصوم وتوضيح:

تُعدُّ هذه اللفتة من الصحابي عمرو بن العاص ﷺ من القول بالعدل والإنصاف، على الرغم من عداوة الروم للمسلمين وخصومتهم آنذاك! والتزامًا بمنهجية العدل؛ فإن هذه الطبائع أو الخصال ما تزال من مصادر القوة السياسية والعسكرية لكل من يتَّصف بها.

فلو تأملنا تلك الخصال الثلاث الواردة في الأثر (الحلم عند الفتنة، وسرعة الإفاقة بعد المصيبة، والكرة بعد الفرة) لوجدنا أنها لا تعني المدح والثناء، أو الشهادة بالتفوق وقوة الحضارة، بقدر ما أنها توصيف لأبرز عناصر الطبائع الذاتية المرتبطة بالقوة العسكرية والسياسية للروم في السابق، وللغرب النصراني في اللاحق. ولوجدنا كذلك أن هذه الخصال الخمس بمجموعها لم تكن قِيَمًا وأخلاقًا حضارية إشعاعية للتصدير، أو قِيمًا متعدية النفع للآخرين.

وفي العصر الحاضر تحديدًا فإن الوضع الداخلي للغرب وفيما بينهم يُعدُّ لصالحهم؛ فالفتن والمحن في أحيان كثيرة تزيدهم تماسكًا ووحدة، وتدفعهم إلى الأمام وليس إلى الخلف، وذلك بسبب الحِلْم فيما بينهم. وهم أسرع إفاقة بعد الحروب التي مرت بهم، ومن آخرها الحربان العالميتان الأوروبيتان الأولى والثانية، حيث تجاوزوها سياسيًا واقتصاديًا، ولم تكن مشجبًا سلبيًا وعائقًا عن عمليات التنمية لديهم

(١) كانت العرب تصنف الجنس البشري من غيرهم بأن سُكان شرق الجزيرة العربية يُعدُّون من العجم، والشمال والغرب روم، بمن فيهم الروس السلاف، والجنوب أحباش. والروم حسب تعريف ياقوت الحموي: «جيل معروف في بلاد واسعة تضاف إليهم فيقال بلاد الروم، واختلفوا في أصل نسبهم... وأمّا حدود الروم فمشارقهم وشمالهم الترك والخزر ورسّ، وهم الروس، وجنوبهم الشام والإسكندرية، ومغاربهم البحر والأندلس». ينظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي: (٣/٩٧-٩٨).

كما هو حال غيرهم. وهم كذلك أطول الناس نَفَسًا في حرب أعدائهم حيث سرعة الكرَّة بعد الفرار.

وأما الخصلتان الرابعة والخامسة (خير الناس لمساكينهم وضعفائهم، وأمنعهم من ظلم الملوك)، فهي مما يُعدُّ من القيم عند عموم الغرب في عصورهم المتأخرة، بالرغم مما أصابها من الانحراف أو الضعف نتيجة تخليهم عن صحيح دينهم! ثم نبذهم لدينهم مؤخرًا، ومع هذا فقد أصبحت هذه القيم في أحيانٍ معيَّنة من القيم الموروثة المتبقية والدافعة، وربما الضابطة لبعض المنظمات الخيرية للشعوب الغربية.

وتكشف أعمال بعض المنظمات الحقوقية والإغاثية عن وجود هذه القيم. ويتضح هذا في الحجم الكبير لأدوار منظمات القطاع التطوعي وغير الربحي الغربية المتنوعة والمتعددة التي أنشأها الغرب، لكنها لمصالحهم وفيما بينهم. وكان النجاح لمنظماتهم حينما تم وضعها إداريًا في الموقع الرئيس من التنمية الاقتصادية والاجتماعية لبلدانهم، وهو ما يتطلب الاستفادة من تجربتهم الإدارية خاصةً في الوسائل والبرامج التي تميزت بها كثير من تلك المنظمات.

ويمكن للمسلمين أن يُوظِّفوا قيم الإسلام وتشريعاته المتعدية النفع والرحمة للعالمين أجمعين؛ لتخدم أكثر في قطاعهم التطوعي، ولكل البشرية بما يفوق غيرهم -كما فعلوا أزمنة حضارتهم التي أنارت العالم- مع العمل على استلهام تجارب الآخرين.

كما أن الديمقراطية السياسية المعاصرة لديهم وما فيها من عدل فيما بينهم مما يؤكد أثر الخصلة الخامسة عندهم (أمنعهم من ظلم الملوك)؛ حيث محاسبة الشعوب الغربية لحكوماتهم، وهذا من مصادر قوتهم وتفوقهم، بل وهيمنتهم العالمية، وقد أشار إلى شيءٍ من هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: «إنَّ الله يقيم الدَّولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدَّولة الظَّالمة وإن كانت مسلمة»[1].

ويمكن أن نقرأ في إشارات هذا الصحابي الجليل ﷺ التنبيه على هذه الخصال وأهميتها في سلامة المُلك وقوته ودوامه، للاستفادة منها من جهة، مع التنبه للخلل الحاصل من الغرب العلماني في قَصر هذه القيم على أقوامهم من جهة، ووجود العوائق والخلل في تطبيقات الديمقراطية في العالم الآخر من جهة أخرى.

تُعدُّ هذه اللفتة من الصحابي عمرو بن العاص ﷺ من القول بالعدل والإنصاف، على الرغم من عداوة الروم للمسلمين وخصومتهم آنذاك! والتزامًا بمنهجية العدل؛ فإن هذه الطبائع أو الخصال ما تزال من مصادر القوة السياسية والعسكرية لكل من يتَّصف بها

قراءة تاريخية مفصلة في هذه الخصال:

تتأكد أهمية التوضيح عن هذه الخصال الخمس وفعاليتها، والتحاكم حولها وحوكمة القطاع الخيري الغربي المعاصر إليها عند أي قراءة عنه وله. وهنا عرض تفصيلي لهذه الخصال (الصفات)، ثم للقيم الأخلاقية وحوكمتها تاريخيًا، باعتبار الروم هم الغرب المعاصر تقريبًا، ومن المؤكد أن هناك فروقات في المفاهيم والمعاني بين الطبائع (الثلاث الخصال الأولى) وبين بقية الخصال التي تُعدُّ من القِيَم الخاصة بهم.

فعن (الخصلة الأولى) «أحلم الناس عند فتنة»، نجد أن الغربيين يتعقَّلون إلى حدٍّ معين في التعاطي مع احتواء الفتن والأزمات الداخلية داخل مجتمعاتهم الغربية. لكن هذا الحلم لم يكن قاعدة أساسية تمنع وقوع الفتن الكبرى فيما بينهم. كما أننا لا نجد أن التاريخ الغربي كله يتسم بهذه الخصلة، فالباحث يجد أن معظم تاريخ أوروبا تسوده الفتن والاقتتال الداخلي. ومن ذلك حروب قياصرة أوروبا والحروب الدينية فيما بينهم، وحروب المئة عام الأوروبية البينية (١٣٣٧-١٤٥٣م)، وحروب الثلاثين عامًا فيما بينهم (١٦١٨-١٦٤٠م)، بل وفي العصر الحاضر تُعدُّ الحروب الأوروبية البينية مما يتنافى مع الحلم. ومن أبرزها الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) والثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) والتي أهلكت ما يزيد عن ٦٥ مليون إنسان منهم، مما يمكن وصفها بالحماقة وعدم الحلم! فهل ينتفي مع هذه الحروب الكثيرة والطويلة بقاء الحلم والأناة والتعقل؟ فضلاً عن حروبهم مع الآخرين مثل حملاتهم الصليبية الوحشية ضد العالم الإسلامي على مدى قرنين من الزمان! وهل أنموذج التعقل والحلم كان منتفيًا أثناء حروب توحيد الولايات المتحدة الأمريكية؟ ثم ما مدى حضور الحِلْم الأمريكي عند حدث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م حينما استفزهم الحدث؟ -بالرغم

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٤٦/٢٨).

من تناقض الروايات حول مصدر الحدث وصانعه- فدمَّروا مثلاً العراق وأفغانستان بكل صور التدمير، بما لا يخطر على البشرية تصوره؟ فهل هذه الأحداث والحروب الأوروبية والأمريكية الطويلة والقذرة تعني أنها حالات استثنائية في تاريخ (الحِلْم) الغربي، بالرغم من ديمومتها عشرات ومئات السنين؟ أم أن ما ورد عن عمرو بن العاص ﷺ كانت خصالاً بعمومها مرتبطةً بزمنه وبالديانة النصرانية لدى روم الشام ومصر من العرب النصارى؟! وهذا ما يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة.

كل هذا مما يُرجِّح أو يتوافق مع القول: إنَّ الروم عند ورودها في الأحاديث والتاريخ والآثار يُقصد بها أهل الدين النصراني، وليس جنس الروم. وهذا بالتالي يؤكد أن غياب الدين -وإحلال العلمانية أو الإلحاد بمكانه- يعني انتفاء هذه الصفات أو ضعفها مع بقاء آثارها.

وعن (الخصلة الثانية) «أسرعهم إفاقة بعد مصيبة»، فالروم سابقًا والغرب لاحقًا لديهم بحق سمة المهارات والقدرات في إدارة أزماتهم الذاتية! وذلك للنهوض من كبوات الحروب الداخلية ومصائبها وتجاوز كوارثها، وإن كانوا طرفًا فاعلاً أساسيًا في إثارة الحروب الخارجية التي تُوحِّد شعوبهم الغربية وتُبعد الحروب الداخلية عنهم، كما حدث منهم في تاريخ الاحتلال البغيض لدول العالم، وما صار لهم من استقرار بعد الحرب الأوروبية العالمية الثانية، يُمكن أن يُعدَّ حالة استثنائية في تاريخهم الطويل، لتأتي حروب البوسنة وكوسوفا والحرب الأوكرانية الغربية الروسية عام ٢٠٢٢م فتُفسد هذا الاستقرار والاستثناء! علمًا أن خصلة الإفاقة بعد المصيبة خاصة بهم، وليست نافعة للآخرين؛ بل إن إفاقتهم تعني هجومهم على غيرهم واحتلالهم!

وحول (الخصلة الثالثة) «أوشكهم كرة بعد فرة»، فهذا ما يُصَدِّقُه حالهم في تجاوز الهزيمة وآثارها، والعمل على استعادة القوة والانتصار. والواقع المعاصر يؤكد أن هذه الصفة تتلازم مع شخصيتهم فلا يسأمون من الغزو والاحتلال، أو من الحرب مع الآخرين ولو بعد وقوع الهزيمة بهم! فالعمل المؤسسي في الغرب مع النقد الذاتي والمراجعات والتصحيح لأخطائهم عامل مساعد على تحقيق هذه الخصلة، لا سيما في عصور هيمنتهم.

والظاهر من أحوال الغرب وتاريخهم أن هذه الطبائع أو الخصال الثلاث كانت -ولا تزال- نافعة لهم، مع أنها ضارة بخصومهم وأعدائهم من المسلمين وغيرهم، وربما ارتبط جانبها السيء بأكثر من الحَسَن؛ حيث عدوانيتهم العسكرية على الآخرين أكثر من حالات السلم والسلام مع غيرهم! فهذه الخصال الثلاث خصال حميدة للروم أنفسهم، لكنها تُعدُّ بحق الآخرين من خصومهم مخاطر عسكرية، وبالتالي فهي ليست أخلاقًا وقيمًا نافعة للآخرين.

وعن (الخصلة الرابعة) وهي من القيم الأخلاقية المُثلى «وأرحمهم لمسكين ويتيم وضعيف»، وفي رواية أخرى لمسلم تؤكد بمنطوقها أنها صفة لهم وخاصة بهم مع أنفسهم (وخَيرُ الناسِ لِمَساكِينِهم وضُعَفائِهم)[1]. وهو ما نراه اليوم من نجاح مؤسساتي كبير داخل دول الغرب ذاتها وخارجها كذلك، مع تحفظ على كثير من الممارسات حول إنسانية الغرب الخارجية، لا سيما عند عمل الغرب خارج نطاقه الجغرافي وكيله بمكيالين في الإنسانية! كما هو احتلال الغرب لمعظم بلدان العالم وسرقة ثرواتهم وانتهاك حقوقهم الإنسانية أفرادًا ومجموعات ودولاً، مثل ما هو مع معظم دول أفريقيا في صناعة المساكين والضعفاء والفقر والمجاعات، ويؤكد هذا خروج رحلات الموت البشرية والهجرات الجماعية منها، بحثًا عن لقمة العيش والحياة؛ حيث لم تستفد من العون الإغاثي الغربي.

تشير المرجِّحات إلى صحة مقولة: إنَّ الروم عند ورودها في الأحاديث والتاريخ والآثار يُقصد بها أهل الدين النصراني، وليس جنس الروم. وهذا بالتالي يؤكد أنَّ غياب الدين وإحلال العلمانية أو الإلحاد بمكانه يعني انتفاء هذه الصفات أو ضعفها مع بقاء آثارها

إضافةً إلى التحفظ حول أهداف العديد من مؤسسات العطاء الغربي، كالتنصير، وأعمال التجسس والدراسات الاستعمارية عن الأمم والمجتمعات، حيث تُصنف بعضها لدى كثير من الباحثين بأنها بوابة استعمارية ذات أهداف غير أخلاقية، كما أن بعض الممارسات الخاطئة من بعض

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٨).

صفات الروم التي وردت في مقولة عمرو بن العاص رضي الله عنه

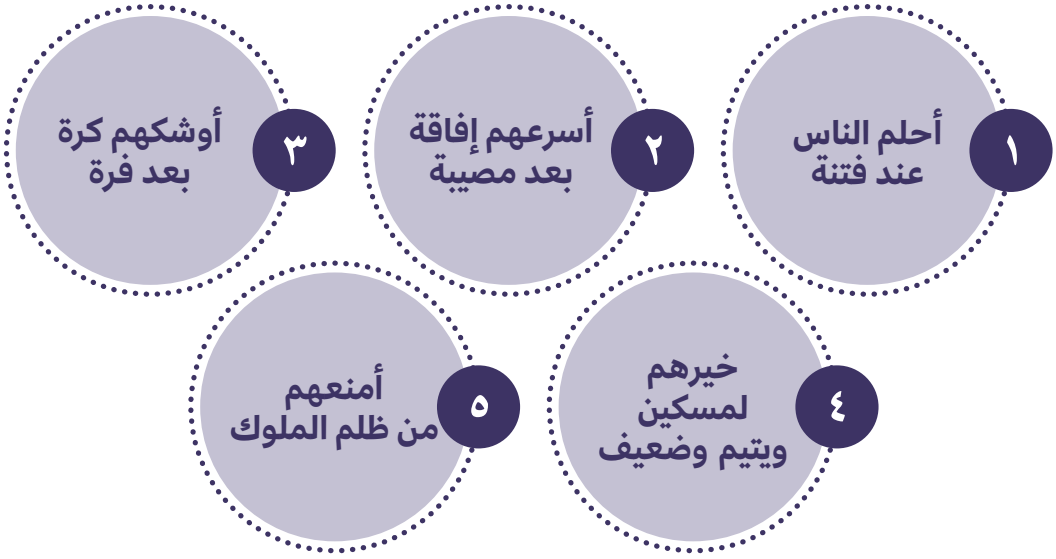

وهي صفات ذاتية فيهم، مصدرها أثر الدين النصراني لديهم، تضعف كلما ابتعدوا عنه

مؤسسات العطاء خارج أوطانها تعمل بما يُسمَّى (الجنس مقابل عَطاء الغذاء)، كما تشير إلى هذا بعض تقارير الأمم المتحدة، وكما هو تعبير الباحث البريطاني غراهام هانكوك في كتابه (سادة الفقر).

إضافةً إلى توزيع الأغذية والأدوية الفاسدة أو المنتهية صلاحيتها للمحتاجين في بعض دول العالم الفقيرة، كما في الكتاب السابق ذكره، وكما في كتاب الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر (قيمنا المعرضة للخطر) وغيرهما من الكتب.

ومن المؤكد أن هذه التجاوزات والممارسات الخاطئة الكبيرة جاءت بسبب تحولات الغرب عن قِيَمه الدينية السابقة؛ حيث لا أخلاق أو قيم مُثلى بلا دين كما هو معلوم، لا سيما ما حدث بعد الثورات الصناعية الغربية وثورات التقنية، وما صاحبها من تحولات الغرب للحداثة وما بعدها بديلاً عن دينهم وما فيه من قِيَم أخلاقية سماوية[1]، وما ترتب على هذا التحول القديم والجديد من ضَعف القيم الأخلاقية وانعدام الثوابت، فالاستحسان للأخلاق ليست ثوابت، وليست مرجعية قوية يُعتمد عليها! ولهذا ترد تساؤلات كبيرة عن مدى استمرار التزام عموم الغرب بهذه الخصلة في عصورهم المتأخرة! لا سيما مع علمانية كثير من المنظمات الغربية، وتنامي الإلحاد واللاأدرية لدى معظم شعوب الغرب ودوله!

وتأتي (الخصلة الخامسة) وهي من الخصال الأخلاقية الجميلة في حياتهم «أمنعهم من ظلم الملوك» والتي تُعدُّ صِمامَ أمان بين شعوبهم وحكوماتهم. وبحضور هذه الخصلة الأساسية للحياة لأي دولة تتحقق في الغالب الخصال الأربع الأخرى.

وهذا ما يؤكده واقع الغرب المعاصر بديمقراطيته. فرؤساؤهم من انتخابهم وبإرادتهم جاؤوا، والحاكم موظف تنفيذي لهم، بالرغم مما ساد معظم التاريخ الأوروبي من حكم إقطاعي واستبداد سياسي وديني ظَلَّ قرونًا طويلة.

فهل يُعدُّ هذا الاستبداد التاريخي في أوروبا ما قبل الثورة الصناعية من الاستثناء برغم طول مدته لقرون متعاقبة؟ ثم إن مما يؤكد أن هذه الصفة داخلية بينهم أنهم بسياساتهم الاستراتيجية يُعدُّون من أكبر الداعمين للحروب الخارجية، ومن أقوى المناصرين للاستبداد السياسي في معظم دول

(١) يمكن الاطلاع حول كارثة الحداثة على الغرب في رؤية المفكر الألماني مراد هوفمان، ينظر: المفكر الألماني مراد (ويلفرد) هوفمان - رؤيته في احتضار الغرب وصعود الإسلام، لمحمد السلومي، ص (٣٣١-٣٤٢).

العالم الثالث والنامي، وفيها من الظلم والعدوان على العدالة وعلى حقوق الشعوب الشيء الكثير!

وقد عَمِلت شعوب الغرب ودُوَله على ما يكفل لهم هذا الحق داخل أوطانهم (أمنعهم من ظلم الملوك)، حينما أنشؤوا مؤسسات معنية بالعدالة والديمقراطية في الجانب السياسي، إضافةً إلى حقوق الإنسان الغربي والمنظمات الأممية المُسخَّرة لخدمة استقرار الغرب وسلامته وأمنه، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، ومن ذلك تأسيس منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومجلس حقوق الإنسان. وكل هذا مما يراه الغرب موانع من ظلم الحكومات الغربية لشعوبها! بالرغم من عدم العدالة مع الدول الأخرى وحقوقها الإنسانية، لا سيما في ممارسة حق القبول والرفض (النقض) المسمى (الفيتو)؛ حيث خَمْس دول كبرى دائمة العضوية في مجلس الأمن لا تمثل سوى ربع سكان العالم أو أقل يتحكَّمون ببقيته؛ لدرجة اغتيال العدالة الدولية في كثير من القضايا! ولهذا يُعدُّ حق (النقض) الفيتو من العار الذي تراه عموم البشرية وتعيش آثاره!

> **لا شكَّ أن الغرب بالتزامه ببقايا طِباع الروم النصرانية والقيم المُكمِّلة لها عاش فترةً من الاستقرار والسلام الداخلي وساد وهيمن، وتَقَدَّم ماديًا بصورة مذهلة، بغض النظر عن جوانب العدوان لدى الغرب مع الشعوب والأمم الأخرى**

وقفةٌ للتأمل:

لا شك أن الغرب بالتزامه ببقايا طِباع الروم النصرانية الثلاث الأولى، ثم بأخذه بالقيم المُكمِّلة (الرابعة والخامسة) عاش فترةً من الاستقرار والسلام الداخلي وساد وهيمن، وتَقَدَّم ماديًا بصورة مذهلة، بغض النظر عن جوانب العدوان لدى الغرب مع الشعوب والأمم الأخرى، والممارسات الخاطئة بحقوق الآخرين من دول وشعوب؛ حيث تكريس الكراهية والتعصب وعدم التسامح، كما حَدَثَ ويحدث -على سبيل المثال- مع فلسطين، والبوسنة والهرسك، ومع كوسوفا، ومع أفغانستان والعراق وسوريا! وغيرها كثير.

وعن الظلم والعدوانية بتحقيق المصالح الخاصة للدول الكُبرى على حساب إضعاف وتخلف غيرها فإن القيم الغربية السياسية تكشف حقيقة غيرها من القيم. ومن ذلك المقولة المنسوبة لوزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر، وهي مما يكشف أكثر عن أبرز مُوجِّهات القيم الغربية السياسية: «على الولايات المتحدة ألا تقوم بحل أي من المشكلات العالمية، بل عليها أن تُمسك بخيوطها، وأن تُوجِّهها بما يخدم الأمن القومي الأمريكي»[(١)].

وفي كتاب (ما وراء السلام) قال ريتشارد نيكسون: «إن معظم أفضل الرؤساء الأمريكان هم الرؤساء الذين خاضوا حربًا، وأعظم الطفرات الأمريكية في الإنتاج والتقدم العلمي قد حدث أثناء الحروب»[(٢)]. فهل الأمن القومي الأمريكي والمصالح الخاصة والقوة تكون بإثارة الحروب وبقاء الأزمات العالمية وتعطيل المصالح العامة للدول الأخرى غير الغربية؟!

ولهذا يرد التساؤل المنطقي: هل روم اليوم بدون قيم الدين النصراني، هم روم الأمس بدينهم المُحرَّف الذين ربما عناهم قول الصحابي عمرو بن العاص ﷺ؟ لا سيما أن التساؤل يتأكد عند استحضار صراعاتهم وحروبهم البينية وتعاملهم مع غيرهم كما سبق، علمًا أن حقيقة القيم والأخلاق المُثلى الصحيحة هي التي لا تكون مع الأنداد والأقوياء فحسب، بقدر ما هي بالعدالة أولاً مع الضعيف والمسكين والفقير، وبالتسامح مع الآخرين من دول وشعوب، مع الحرص على الاستقرار والسلم والسلام العالمي، وليس الغربي فحسب.

فاحترام حقوق الإنسان بعدم الاعتداء على ثروات الأمم والشعوب، هو ما يتوافق مع الخصلة الخامسة، لو كان منع الظلم يتعدى حدود الغرب الجغرافية! وخلاف ذلك يُعدُّ من أكبر الظلم والانتهاك لحقوق الإنسان، وللأمم والشعوب والدول[(٣)]!

(١) ينظر: مقال بعنوان: (لماذا تُوَرِط الولاياتُ المتحدة العالمَ في سورية)، لخليل مقداد، صحيفة أورينت نت، بتاريخ ٢٣ فبراير ٢٠١٦م، الرابط التالي: https://orient-news.net/ar/news_show/١٠٣٨٢٣

(٢) ينظر: ما وراء السلام، لريتشارد نيكسون، ترجمة مالك عباس، ص (١٨).

(٣) مما هو معروف تاريخيًا -كأنموذج- حول عدالة الإسلام والتسامح مع المخالف: أن النصارى في حِمص طلبوا من عمرو بن العاص رضي الله عنه البقاء تحت حكم المسلمين، دون حكم دولة الروم التي تُعامل نصارى الشام معاملةً سيئة!

ومرةً أخرى هل تعني عموم هذه الخصال الخمس النافعة لهم أنها كانت سائدة فقط في ذلك الزمن وحده؟ لا سيما أن قول عمرو بن العاص ﷺ يؤكد أن صفاتهم الرابعة والخامسة، وما فيها من القِيَم الحسنة تتعلق بهم داخل حدودهم ولبني جنسهم، وفيما بينهم دون من سواهم!

ثم ألم يطرأ لدى الغرب تحول في ميادين القيم والأخلاق العامة بعد عصور الحداثة والتنوير وبعد نبذ الدين وقِيَمه؟ لا سيما قِيَم القطاع غير الربحي الخارجي، كما هي حال مؤسسة غيتس غير الربحية[1]، وكذلك جورج سوروس وما يُثار على كثير من برامجهما من شكوك، مما يتنافى مع القيم والأخلاق الإنسانية! أم أن كل هذه التساؤلات تُثبت أن هذه الخصال الخمس كانت في عصورٍ مضت، وبقيت بعض آثارها ورواسبها؟

ولهذه الاعتبارات المتعددة وما يُماثلها فإن هذه القيم المثلى الرابعة والخامسة -وليست خصال الطبائع- من المُرجَّح أنها ترتبط أخلاقياتها ومثاليتها بالديانة النصرانية وقيمها آنذاك أينما كانت، خاصةً في مصر والشام، حيث سيادة أو احتلال الروم النصراني لهما آنذاك، وإن كان الغرب المعاصر وَرِثَ هذه الخصال من الديانة النصرانية فكيف يكون الجمع بين كلام عمرو بن العاص ﷺ والواقع العملي التاريخي المختلف كثيرًا عن هذه الخصال أو بعضها؟

> **البشرية بحاجة إلى حضارة تُهدِي الحرية الحقيقية للإنسان، وتقدم له ما في حضارة الإسلام من تحقيق للعدالة والتسامح والرحمة مع البشرية جمعاء، بما يفوق خصلة المنع من ظلم الملوك التي وصف بها الروم**

وهذا ما يتطلب شيئًا من المناقشة الهادئة المنصفة والتساؤلات حول مَن المقصود بالروم هل هو الجنس أم الدين؟ وعن بقاء عموم هذه الخصال، وهل تتلازم معهم إلى قيام الساعة؟ مع أن بعض هذه الخصال الحميدة من آثار دينهم كانت -وما زالت- داخل حدودهم وفيما بينهم فقط؛ حيث إن لهم خارج حدودهم ممارسات مختلفة تمامًا؛ لدرجة التصادم مع كل القيم والأخلاق التي وردت في الأديان السماوية! كما سبق توضيحه.

وخلاصة القول في هذه (القراءة التاريخية) عن حقيقة هذه الخصال الخمس أنها صفات وطبائع ذاتية، وقيم أخلاقية مُنحصرةٌ بهم داخل دولهم. كما أنها تخصهم دون نفع مُتعدٍ لغيرهم من شعوب الأرض! حتى إن وسائل المدنية الغربية والتقدم المادي الصناعي والتقني الغربي المعاصر لم تنتشر إلا من خلال التسويق التجاري الاقتصادي البحت ببيع المنتجات التقنية والصناعية للآخرين! وقِيَم الاقتصاد ليست ذات أصل ديني وأخلاقي نافع للآخرين بقدر ما هي ذات أصول مادية نفعية مصلحية، ثم إن هذه الصناعات لا تعدو أن تكون تقنيات وماديات اقتصادية وتجارية، وليست عطاءً ورحمة وإسعادًا للبشرية.

وبهذا تتأكد قيمة وأهمية المنظومة الحضارية الكاملة (للقيم والأخلاق) معنويًا وماديًا وأهميتها للبشرية، حينما تكون صادرة من حضارةٍ إشعاعية تُقَدِّمُ النفع والخير والعدل لعموم البشرية، بما ينافس قول الصحابي عمرو بن العاص ﷺ: «وخير الناس لمساكينهم وضعفائهم». ومن المهم قوله إن البشرية بحاجة إلى حضارة تُهدِي الحرية الحقيقية للإنسان، كما أكَّد هذا المفكر النمساوي محمد أسد ومن بعده المفكر الألماني مراد هوفمان، وما في حضارية الإسلام من تحقيق للعدالة والتسامح والرحمة مع البشرية جمعاء، بما يفوق هذه الخصلة الموصوف بها الروم «وأمنعهم من ظلم الملوك».

كما تتأكد الأهمية لحضارة تُلبِّي حقوق الإنسانية وللعالَمين جميعًا بمحركاتها الدينية وضوابطها من الثوابت الأخلاقية، وهو ما اتصفت به الحضارة الإسلامية عبر عصور إشعاعاتها على الشرق والغرب، كما هو -كمثال- عنوان كتاب الباحثة الألمانية زيغريد هونكه (شمس الله تشرق على الغرب - فضل العرب على أوروبا) حسب الترجمة الصحيحة للعنوان، والله من وراء القصد.

(١) ينظر عن هذا: (الرأسمالية الخيرية في إفريقيا: مؤسسة بيل جيتس نموذجا)، مجدي محمد آدم، مجلة قراءات أفريقية بمصادرها المتعددة، العدد (٥٦)، بتاريخ أبريل ٢٠٢٣م.

تغوُّل الخطاب الإنشائي وأثرهُ في تسطيح المعرفة

د. أمين نعمان الصلاحي (*)

الخطاب العاطفي الحماسي له مقامه المناسب، ودوره الذي يؤديه، وفوائده في التأثير والإقناع والحشد، وهو ضروري لا يمكن للكاتب أو المتكلم تجاهله، كما أنَّ المستمع أو القارئ يستفيد منه ولا يستغني عنه، لكنه حينما يكون طاغيًا على الأسلوب، مشوشًا على الحقائق والمعلومات، زائدًا عن الحد المقبول في الكلام، صار مُضرًّا مُضلِّلًا

مدخل:

إن الناقد البصير حين يتأملُ في المشهد الثقافي الراهن وفي عموم مخرجاته وتوجهاته يمكنه أن يرصد مظاهر كثيرةً للتجهيل والتسطيح، وأن يجد العديد من الشواهد التي تؤكد استفحال الضحالة والركاكة المعرفية، والركون إلى الجمود والتقليد والسطحية، والعجز عن توليد الجديد النافع من الرؤى والمفاهيم والأفكار.

ويكفي المرء أن يلقي نظرةً على كثيرٍ مما يُقال ويُكتب هذه الأيام ليرى الحشو والتَّكرار والاجترار وفضول الكلام هو الغالب، وقد ذهب المهتمون بتشخيص واقع الحالة الثقافية والمعرفية مذاهب شتى في تحليل أسباب ذلك الضعف والوهن، وغاب عنهم أو كاد يغيب أثر تغول الخطاب الإنشائي فيما نعانيه اليوم من هشاشة علمية وضحالة فكرية.

ماذا نعني بالخطاب الإنشائي؟

الإنشاء في أبسط معانيه هو الاقتدار على فن الكلام، ومن أحسن ما قيل في تعريفه اصطلاحًا أنه: «علمٌ يعرف به كيفية استنباط المعاني وتأليفها مع التعبير عنها بلفظٍ لائق بالمقام، وهو مستمدٌ من جميع العلوم؛ وذلك لأن الكاتب لا يستثني صنفًا من الكتابة؛ فيخوضُ في كل المباحث ويتعمد الإنشاءَ في كلِّ المعارف البشرية»[1].

(*) أستاذ مادة العقيدة والأديان والفرق في المعهد العالي للمعلمين بمحافظة تعز - اليمن.

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، للسيد أحمد الهاشمي (١٦/١).

ومن هذا التعريف يتبين أن كاتب الإنشاء لا يقتصر على الكتابة في مجالٍ دون مجال، ولكنه يسخر إمكاناته الأدبية وقدراته اللغوية ومعارفه الثقافية للكتابة أو الحديث في شتى الموضوعات.

يتميز الخطاب العلمي بمخاطبة العقل، واستثارة التأمل والتفكير؛ والاعتماد على الحقائق الموضوعية، ويتسم بالدقة والمنهجية، ويهتم بتحرير المفاهيم والمصطلحات، ويفرق بين الحقائق اليقينية والمسلَّمات الوهمية، ويضيف جديدًا إلى المعرفة

معالم الخطابين: الإنشائي والعلمي:

إذا أردنا التأسيس لتكوين علمي وفكري متين، فلابد من التمييز بين الخطابين: العلمي والإنشائي؛ ويمكن التمييز بينهما من خلال المعالم والسمات المميزة لكل واحدٍ منهما، ولنبدأ بالخطاب الإنشائي الذي يتميز بالفنون البلاغية، ويعتني بحشد الألفاظ، وسبك العبارات، ويتجه نحو دغدغة العواطف، وإثارة الحماس، وقد يمزج الواقع بالخيال، والحقيقة بالمثال، ومن خلال ذلك يحاول التأثير على الآخرين وإقناعهم بوجهة نظرٍ ما. وهو حسنٌ في موضعه حين يؤدي دوره في الوعظ والحث، والترغيب والترهيب، وبث الحماسة في النفوس، شرط التزامه الصدق والموضوعية، وأما إن سُخِّرت أساليب الإنشاء لدغدغة المشاعر واللعب بالعواطف دون مراعاةٍ لقيم الصدق والموضوعية والمعقولية فحينها يخرج الكلام عن دائرة الخطاب الإنشائي المحمود إلى دائرة الخطاب الديماغوجي[1] المذموم القائم على التلاعب بعقول الناس وبيع الوهم لهم، وقد يوردهم المهالك.

وأما الخطاب العلمي فهو يتميز بمخاطبة العقل، واستثارة التأمل والتفكير؛ والاعتماد على الحقائق الموضوعية، ويتسم بالدقة والمنهجية، ويهتم بتحرير المفاهيم والمصطلحات، ويفرق بين الحقائق اليقينية والمسلَّمات الوهمية، ويضيف جديدًا إلى المعرفة.

التأصيل الشرعي:

جاء في أحاديث النبي ﷺ وكلام الصحابة والتابعين ما يفيد تفريقًا بين خطابين: أحدهما قائم على التزيد في الألفاظ وتنميق العبارات دون فائدة ترجى من وراء إطالة الكلام، والآخر يتوخى الحقيقة والدقة والفائدة والاختصار؛ فلقد كره النبي ﷺ المبالغة في التفاصح وكل صور التكلف والتشدق، فقال: (إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة)[2].

وقال ﷺ: (إن أحبَّكم إليَّ وأقربكم مني منزلةً يوم القيامة أحاسِنُكم أخلاقًا، وإن أبغضَكم إليَّ وأبعدكم مني منزلةً يوم القيامة الثَّرثارون المتَشدِّقون المُتَفَيْهِقُونَ)[3].

- والثرثار: الذي يُكثر الكلامَ في تكلفٍ وخروجٍ عن الحد.
- والمُتَشَدِّق: المتكلم بملء شدقيه تفاصحًا وتعظيمًا لكلامه.
- والمُتَفَيْهِقُ: أصله من الفَهْق، وهو الامتلاءُ، من قولهم: فَهِقَ الإناءُ والحوضُ، إذا امتلأ حتى تصبَّب[4]، وأُطلق على من يتنطع في الكلام ويتوسع فيه، كأنه ملأ فمه بالكلام إظهارًا لفصاحته، وفضله، واستعلاءً على غيره، ولذلك جاء في بعض الروايات تفسيره بالمتكبر.

وقال ﷺ: (إن طولَ صلاةِ الرجلِ وقِصَرَ خُطبته، مَئِنَّةٌ من فقهه)[5].

ومَئِنَّةٌ من فقهه: أي علامةٌ دالةٌ على فقهه.

إن الاقتدار على الخطابة، والاغترار بذلاقة اللسان، والافتتان بشهوة الكلام، غالبًا ما يحول بين الإنسان وبين الوقوف حيث يجب أن يقف، وقد جاء التحذير من هذا المسلك في عددٍ من الأحاديث النبوية، ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري في الصحيح عن مسروق قال: «دخلت على عبد الله [يعني ابن مسعود] فقال: إن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم، إن الله

(١) الديماغوجية أو الدوغمائية «Demagoguism»: الغوغائية، ويقصد بها أساليب التحريض وتهييج الغوغاء، أي الانفعاليين والعاطفيين من الناس الذين يمكن التأثير فيهم بالشعارات والخطب الحماسية وأساليب الإثارة واستغلال أسباب الاستياء الاجتماعي. والديماغوجي «Demagogic» هو الشخص الذي يعمد إلى إثارة العواطف لدى الجماهير على حساب العقل، والخطيب السياسي الذي يلعب بعواطف العامة. ينظر: قاموس المصطلحات الإعلامية، للدكتور محمد فريد محمود عزت، ص (١٠٧). ومعجم المصطلحات الإعلامية، للدكتور أكرم شلبي، ص (١٦١).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٠٥) والترمذي (٢٨٥٣).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧٤٣) والبخاري في الأدب المفرد (١٣٠٨) والترمذي (٢٠١٨) وابن حبان (٤٨٢) والطبراني في المعجم الكبير (٥٨٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٥٨٨).

(٤) ينظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٣٢/٢٦).

(٥) أخرجه مسلم (٢٠٤٦).

قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص: ٨٦]»[١]. وجاء في الأثر الصحيح المروي عن عبد الله بن مسعود ﷺ: «إنكم في زمن كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ خطباؤه، وسيأتي عليكم زمانٌ قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ خطباؤه»[٢].

وهذا الأثر يميز بين (الفقهاء) و(الخطباء)، وهو تمييز تدركه العقول الواعية؛ فالفقه علم، والخطابة كلام، وفرقٌ بين العلم والكلام!

وقيل لأيوب السختياني[٣]: «العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم؟ فقال: الكلام اليوم كثيرٌ، والعلم فيما تقدم أكثر»[٤]!

ويروى عن علي بن أبي طالب ﷺ: «العلم نقطةٌ كثّرها الجُهَّال»[٥]!

وهذه الأحاديث والآثار وما جاء في معناها تقرر مسألةً هامةً في صلب المنهج، وهي أن العلم النافع يُستدل عليه بفائدته، وكشفه عن وجه الحق والصواب، لا بتنميق الكلام، وزخرفة القول، وإطالة الحديث، كما هو الشأن في الخطاب الإنشائي حين يتكلف الخوض فيما لا يحسنه، فيكون الكلام لأجل الكلام، أو لبيع الأوهام.

> **إنَّ الاقتدار على الخطابة، والاغترار بذلاقة اللسان، والافتتان بشهوة الكلام، غالبًا ما يحول بين الإنسان وبين الوقوف حيث يجب أن يقف**

الخطاب الإنشائي حسنٌ في موضعه سيءٌ في تغوله:

ربما تبادر إلى ذهن البعض أننا نتحامل على الخطاب الإنشائي، أو ندعو إلى إلغاء وجوده! وهذا الفهم غير صحيح؛ فالخطاب الإنشائي له دور يؤديه في حياة الأمة، وهو حسنٌ في موضعه حين يؤدي دوره في الوعظ والحث والتهذيب، والترغيب والترهيب، وبث الحماسة في النفوس، كما أسلفنا، وإذن فنقدنا ليس موجهًا لذات الخطاب الإنشائي، وإنما لتغوله وإحلاله في غير موضعه، ولما ينتج عن ذلك الإحلال من الآثار، ويمكن أن نُجمل المآخذ في ثلاثةِ أمور:

- **الأول:** تناول خطباء وكتّاب الإنشاء للمسائل العلمية وقضايا الفكر العميقة الشائكة بلغة خطابية لا عمق فيها، ولا أثر للتحقيق في ثناياها، وقد أدى هذا المسلك إلى شيوع ظاهرة الثقافة الهشة بما تعنيه من ترسيخ للسطحية والضحالة المعرفية.
- **الثاني:** الخلط الموجود في مجتمعاتنا بين الخطاب العلمي والخطاب الإنشائي، وبين الخطباء والكُتّاب الإنشائيين وبين أهل العلم والنظر والتحقيق، وما أدى إليه هذا الخلط من عزوف عن التكوين العلمي الراسخ المتين.
- **الثالث:** توهم بعض خطباء وكُتّاب الإنشاء في أنفسهم العلم، وفقدانهم الإحساس بحاجتهم إلى الاستزادة من المعرفة، اغترارًا منهم بقدرتهم على البيان وفنون الكلام.

ومن خلال هذه المآخذ يتبين أن الإشكالية ليست في ذات الخطاب الإنشائي، وإنما في إساءة استخدامه وتوظيفه، وفي ذلك الخلط القائم في مجتمعاتنا بين الخطاب الإنشائي والخطاب العلمي؛ بحيث لم يعد الناس يفرقون بين الخطيب والعالم، وبين الفقيه والواعظ، وبين الباحث المتخصص والكاتب الهاوي، بل كل من امتلك ناصية البيان وأجاد تزويق الكلام فهو في نظرهم أهلٌ لأن يُؤخذ عنه ويُصدر عن رأيه!

ونتيجة لسيطرة الخطاب الإنشائي وتجاوزه لمجاله وحدوده أصبحنا «ندفع اليوم أثمانًا باهظة، ونخلي الكثير من المواقع، الواحد تلو الآخر لخصومنا، لعدم تملكنا الأدوات المناسبة والمقنعة في معركة المدافعة الحضارية، حيث تمتد فينا مرحلة الخطباء، وتتجاوز مساحتها المؤثرة والمطلوبة، فنخطب إذا كتبنا، ونخطب إذا دعونا، ونخطب إذا تحدثنا، ونخطب إذا درّسنا، وإذا حاضرنا، وإذا شاركنا (الآخر) في

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٥).

(٢) هذا الأثر رواه موقوفًا على ابن مسعود: البخاري في الأدب المفرد (٧٨٩)، وبمعناه: الحاكم في المستدرك (٨٤٨٧)، وعبد الرزاق الصنعاني في المصنف (٣٧٨٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٨٥٦٦) و(٩٤٩٦).

(٣) أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري، ولد سنة ٦٦هـ، من سادات فقهاء التابعين وأهل النسك والزهد والورع فيهم، ومن حفاظ الحديث النبوي، رُوي عنه نحو ٨٠٠ حديث، توفي سنة ١٣١هـ، ينظر: مشاهير علماء الأمصار، لأبي حاتم البستي، ص (١٥٠)، والطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد الزهري (٧/ ٢٤٦- ٢٥١).

(٤) المعرفة والتاريخ، للفسوي (٢/٢٣٢).

(٥) سبل السلام شرح بلوغ المرام، للإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، (٤/ ٣٤٣).

الفروق بين الخطاب العلمي والخطاب الإنشائي

الخطاب العلمي	الخطاب الإنشائي
يخاطب العقل	يخاطب العاطفة
يستثير التأمل والتفكير	يستثير الحماسة
يعتمد على الحقائق الموضوعية	يحشد الألفاظ ويسبك العبارات
يهتم بتحرير المفاهيم والمصطلحات	يهتم بتحرير المشاعر والعواطف
يضيف جديداً إلى المعرفة	يتميز بالفنون البلاغية

الندوات والحوارات والمقابلات، ونظن الحل برفع الصوت، وسماكة الحنجرة، والاستزادة من دفقات الحماس... ولا يضيرنا أن نعترف بأن التحول أو النقلة من الأسلوب الحماسي الوصفي الرغائبي إلى الأسلوب الهادئ العلمي الموضوعي التحليلي ليس بالأمر الهين، خاصة في مناخ ثقافي يضطرم بالخطابيات، ويتمحور حول استدعاء مواصفات أسلوب الخطبة، وزعامة الخطبة، مهما كان المجال المطلوب»[1].

الخطاب الإنشائي له دورٌ يؤدِّيه في حياة الأمة، وهو حسنٌ في موضعه حين يؤدِّي دوره في الوعظ والحثّ والتهذيب، والترغيب والترهيب، وبثّ الحماسة في النفوس، والنقد ليس موجهًا لذات الخطاب الإنشائي، وإنما لتغوُّله وإحلاله في غير موضعه

الخطاب الإنشائي والإعاقة المعرفية:

من أسوأ الآثار لتغوُّل الخطاب الإنشائي المبني على العاطفة المجردة وتنميق العبارات وتسطيحها، فضلاً عن مصداقيتها، وسيطرته على المنابر الدينية والإعلامية والثقافية، أنه أوجد حالةً عامة من الركود المعرفي والاطمئنان إلى الثقافة الهشة، والركون إلى ما يقدمه الخطاب الإنشائي من تناول سطحي لأعقد القضايا الفكرية والمسائل العلمية!

لقد أوجد الخلط بين الخطاب العلمي والخطاب الإنشائي أوهامًا في التصور؛ إذ تصور خطباء وكتاب الإنشاء في أنفسهم أنهم من أهل العلم وإن لم يكونوا كذلك، وبالتالي اكتفوا بما عندهم ولم يشمروا عن ساق الجد في طلب العلم والاستزادة من المعرفة، بل استمرؤوا تناول مسائل العلم بلغة الإنشاء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا! فتصدروا لتناول المسائل العلمية والمعضلات الفكرية بخطاب سطحي مكرر لا جديد فيه ولا تجديد، فصاروا بصنيعهم هذا فتنةً تصدُّ عن سبيل التمكُّن المعرفي والرسوخ العلمي؛ لأنَّهم خلقوا في نفوس المتلقين لخطابهم أنَّ العلم هو القدرة على تطويل الكلام، وزخرفة القول، والتزيد في الألفاظ، فسمع الناس منهم كثيرًا ولم يستفيدوا إلا قليلاً، ثم ملوا التَّكرار، واعتقدوا أن لا جديد يرجى، فأعرضوا عن أصالة الطلب، وزهدوا في عمق المعرفة!

ثم بلغ السَّيلُ الزُّبَى حين رمى أربابُ الصنعة الإنشائية السالكين بها غير مواردها من خالف سبيلهم، وسعى في أصالة الطلب وعمق التكوين بالتكلف المذموم والتعمق المرذول، فصاروا بهذا الزعم فتنة تصد عن سبيل الرسوخ العلمي والتمكن المعرفي.

(١) من تقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة لكتاب: التفكك الأسري.. الأسباب والحلول، د. أمينة الجابر وآخرون. ضمن سلسلة كتاب الأمة، ص (١٦- ١٧).

من نتائج الخلط بين الخطابين العلمي والإنشائي: أن ظنَّ خطباء وكتاب الإنشاء أنَّهم من أهل العلم وإن لم يكونوا كذلك، فاكتفوا بما عندهم ولم يشمِّروا عن ساق الجد في طلب العلم، بل استمرؤوا تناول مسائل العلم بلغة الإنشاء! وصاروا بصنيعهم هذا فتنةً تصدُّ عن سبيل التمكُّن المعرفي والرسوخ العلمي

الخطاب الإنشائي والتوسع في استخدام الترادف اللغوي:

يتميز الخطاب العلمي بإدراكه لأهمية اللغة باعتبارها الوسيلة الأساسية للتواصل ونقل المفاهيم والأفكار، وبالتالي فهو يحرص على الدقة في فهم دلالة الألفاظ والمصطلحات، ولا يدخر وسعًا في تحرير المفاهيم، وأما الخطاب الإنشائي فهو يعتمد على وجود الترادف في اللغة ويتوسع في استخدامه توسعًا ينافي في أحيان كثيرة الدقة العلمية، بل يؤسس للسطحية والضحالة المعرفية، وهذا أبرز ما يمكن ملاحظته على خطباء وكتاب الإنشاء؛ إذ تسمع أو تقرأ لأحدهم كلامًا طويلاً، يعمد فيه إلى استحضار المفردات المتقاربة في المعنى، ويظل يصول ويجول بينها، مستكثرًا من حشو الألفاظ، دون أن يحرر مفهومًا، أو يضبط مصطلحًا، أو يضيف جديدًا، أو يحل إشكالاً، أو يقدم رؤيةً واضحةً محددة المعالم للمسألة التي يتحدث عنها.

ولسنا ممن ينكر وجود الترادف في اللغة، وإنما الذي ننكره التوسع في استخدامه إلى درجة تلغي الحدود والتمايز بين المفاهيم والدلالات المختلفة، كما يفعل المتحدث أو الكاتب الإنشائي حين يقفز على التحديد الدقيق للمفهوم الدلالي ويلجأ إلى تفسيره بالترادف، وهي عملية لا تقدم تفسيرًا بقدر ما تتجاوز على خصوصية المعنى.

وإنّ من يُمعن النظر والتأمل في هذه المسألة سيرى أن الثراء اللغوي الذي تمتاز به لغتنا العربية لم يحسن كثيرون الاستفادة منه في إنتاج وبلورة خطاب علمي ومعرفي متين، بل سخروا ذلك الثراء في إنتاج خطابٍ يجيد التزيُّد في الألفاظ وإطالة وتكرار الكلام في غير تحقيق وفائدة، ومن هنا شاع في ثقافتنا التساهل في تحديد المعاني الدقيقة للألفاظ، وأصبحنا نقرأ تفسيرات للألفاظ هي في الغالب مما يحتمله المعنى، فشاعت لدينا المعاني الاحتمالية على حساب المعاني الدقيقة[1].

وإذا كان جمهور علماء اللغة والأصول يقولون: إن الترادف في اللغة موجود ولكنه قليل، وهو في القرآن بين الندرة والعدم، وهذا ما قرره الإمام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) بقوله: «الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقَلَّ أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدِّي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩] إن المور الحركة كان تقريبًا؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة. وكذلك إذا قال: الوحي الإعلام، أو قيل: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٣]: أنزلنا إليك. أو قيل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: ٤] أي أعلمنا. وأمثال ذلك فهذا كله تقريب لا تحقيق»[2].

والسؤال هنا: إذا كان الترادف في القرآن نادرًا أو معدومًا فلماذا يعمد كثير من المفسرين إلى تفسير القرآن بالترادف ولغة الترادف هي لغة تقريب لا لغة تحقيق؟

والجواب: إن لغة (التحقيق) لابد فيها من الحفر العميق، والنظر والتأمل الدقيق، وليس كل أحدٍ يحسن ذلك، أو يصبر عليه، أو يسعفه الوقت للقيام به. فإذا أضفنا إلى ذلك عدم وجود التصور التام لأهمية ذلك الحفر والتنقيب وراء دلالة الألفاظ والمصطلحات؛ فهمنا لماذا مال الأكثرون إلى لغة

(١) تنبه لهذا الخلل العالم الأزهري الشيخ كامل الجزار رحمه الله فألف كتاب: «المعجم الفريد لمعاني كلمات القرآن المجيد» وعن سبب تأليفه للمعجم يقول: «سألني أحد الزملاء عن معنى آية، فأجبته، فقال: هذه إجابة عامة، لقد أجبتني بالمعنى، إنني أريد معنى كل لفظ، المعنى الذي يعرفه العربي، ووضِع له هذا اللفظ.. فكان التعقيب مفاجأة لي، وقلت في نفسي: إننا نلجأ إلى المعنى العام، ونحسب أننا قد فسّرنا، وما هذا من التفسير في شيء! إن كثيرًا من الكتب المختصة بالتفسير، بخاصة الكتب المعاصرة، تنهج هذا النهج، فتلجأ إلى المعنى العام، وما هكذا يكون التفسير، وبعض الناس ولا أقول العلماء يتجرؤون فيفتون بغير علم في كتاب الله.. وتذكرت قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما سئل عن معنى الأبّ بتشديد الباء في قوله تعالى: {وفاكهةً وأبًا} [عبس: ٣١] فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم... وهنا أطلت الفكرة: المعجم الفريد لمعاني كلمات القرآن المجيد». المعجم الفريد لمعاني كلمات القرآن المجيد، للشيخ كامل الجزار . (١/ ٧).
وما قدمه الشيخ الجزار في هذا الكتاب محاولة تحتاج إلى مزيد إثراء.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ٣٤١).

(التقريب) الإنشائية وأعرضوا عن لغة (التحقيق) العلمية.

وسأضرب هنا مثالاً على ذلك: لدينا كلمة (شك) وكلمة (ريب) والخطاب الإنشائي يتعامل مع هاتين الكلمتين على أنهما مترادفتان، وبالتالي فالشك هو الريب، والريب هو الشك!

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] يكاد يجمع المفسرون أن معناه: لا شك فيه. لكن الإمام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) له رأي مختلف فهو يرى أن تفسير الريب بالشك مما تحتمله الآية، ولكنه ليس المعنى الدقيق للآية، يقول رحمه الله: «ومن قال: لا ريب: لا شك، فهذا تقريب، وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة كما قال: (دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ)[١] وفي الحديث: (أنه مَرَّ بظَبْيٍ حاقِفٍ فقال: لَا يَرِيبُهُ أحدٌ)[٢]. فكما أن اليقين ضُمِّن السكون والطمأنينة، فالريب ضده ضُمِّن الاضطراب والحركة، ولفظ الشك وإن قيل إنه يستلزم هذا المعنى لكن لفظه لا يدل عليه»[٣].

وإذن فالمعنى الدقيق لقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو: لا اضطراب فيه، وتفسير الريب بالاضطراب هو الذي ينسجم مع بقية الآيات القرآنية التي وصفت القرآن بالإحكام ونفت عنه التناقض والاختلاف كقوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وأما نفي الشك في القرآن، فنعم هو لا شك فيه عند المؤمنين به، ولكن من لا يؤمن به هو يشك فيه كما قال تعالى: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ [ص: ٨]. والآية تقول: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وكلمة (ريب) جاءت هنا نكرة في سياق النفي، وهو ما يقتضي العموم؛ أي نفي كل أنواع الريب، وتفسير الريب بالاضطراب فضلاً عن كونه المعنى الدقيق للكلمة هو المناسب لعموم الآية كما لا يخفى.

وهذا نذكره من باب التمثيل فقط، وتبقى ظاهرة غياب التدقيق في المعاني وفي تحرير المفاهيم بسبب سيطرة الخطاب الإنشائي القائم على التوسع في استخدام الترادف واحدة من الظواهر المعرفية التي يمكن للباحث المتأمل أن يرصدها، وأن يجمع عليها الكثير من الدلائل والشواهد، وحسبنا هنا أن نفتح الباب لمثل هذا التأمل.

ينبغي لذوي المَلَكَة الإنشائية ألا يركنوا إلى صَنعة الإنشاء، فيخوضوا فيما لا يحسنون من دقيق العلم وقضايا الفكر معتمدين على قدراتهم الإنشائية فحسب؛ ذلك أنَّ عالم الأفكار والمفاهيم وضعًا وحملاً ونقلاً واستعمالاً يحتاج إلى فقهٍ مكين، وبصيرةٍ نافذة، وعنايةٍ بالتحقيق، وصبرٍ على التدقيق

خاتمة:

وفي الختام نُؤكد أن لكلِّ مقام مقالًا، وأن لغة الإنشاء لا يُنكر ما لها من أهمية وفائدة؛ إذ هي لغةُ الأدب والفنون، وسلاحُ الخطيب المفوّه، ووسيلةُ الواعظ المؤثر، وذخيرةُ الكاتب المتألق في حسن البيان والتعبير، ومع ذلك لا ينبغي لذوي المَلَكَة الإنشائية أن يركنوا إلى صَنعة الإنشاء فيخوضوا فيما لا يحسنون من دقيق العلم وقضايا الفكر معتمدين على قدراتهم الإنشائية فحسب؛ ذلك أن عالم الأفكار والمفاهيم وضعًا وحملاً ونقلاً واستعمالاً يحتاج إلى فقهٍ مكين، وبصيرةٍ نافذة، وعنايةٍ بالتحقيق، وصبرٍ على التدقيق؛ وبعبارةٍ أخرى يحتاج إلى لغة العلم الدقيقة لا إلى لغة الخطابة المؤثرة؛ ولكلٍ ميدانه ومجاله، وإعمال كل شيءٍ في موضعه يقود إلى التكامل بين القدرات والخبرات ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

(١) أخرجه أحمد (١٧٢٣) ، (١٧٢٧)، والنسائي (٥٣٩٨)، (٥٧١١)، والترمذي (٢٥١٨) وقال: وهذا حديث صحيح.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٧٨١) والنسائي (٢٨١٨) وابن حبان (٥١١١) وإسناده صحيح. وقال ابن الأثير في غريب الحديث (١/ ١٠١٤): «ظَبْيٌ حاقِف أي نائم قد انْحَنَى في نَوْمه».

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ٣٤٢).

هل في التصوُّر الشرعي للزواج امتهانٌ لكرامة المرأة؟

أ. هدى عبد الرحمن النمر (*)

يسلك أصحاب الدعاوى الباطلة سبيل الانتقاص والإزراء بالشريعة الإسلامية وأحكامها؛ ليلبِّسوا على الناس ويخدعوهم، ويغطُّوا على تهافت دعاواهم، فبدلاً من أن يُثبتوا صحتها وسلامتها، تجدهم يكيلون التهم والنقائص، ولم يعلموا أنَّ الشريعة بنيانٌ قويٌّ راسخ، لا تهتزُّ برياح الباطل مهما عتت وطغت، وفي هذه المقالة تفنيدٌ وتعريةٌ لبعض دعاوى الحركة النسوية المعاصرة حول الزواج في الشريعة الإسلامية

الزواج حكمٌ وغايات عظيمة:

شرع الله تعالى الزواج لغايات وحكم عظيمة، لا تقتصر على الرجل والمرأة فحسب، بل تمتدُّ إلى سائر المجتمع، فهو للزوجين إعفافٌ وسكنٌ ومودةٌ ورحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وهو للمجتمع ضرورة لحفظ النوع الإنساني وإبقاء النسل، وإيجاد العلاقات الاجتماعية، وما ينتج عنها من تكافل وتعاون وتخفيف من أعباء الحياة، وتقوية المجتمع، ورفده بالقوى اللازمة للبناء والتعمير والدفاع، وغير ذلك من الحكم الكثيرة التي يضيق بها هذا المقام.

قال السرخسي رحمه الله: «يتعلق بهذا العقد أنواع من المصالح الدينية والدنيوية، من ذلك حفظ النساء والقيام عليهن والإنفاق، ومن ذلك صيانة النفس عن الزنا، ومن ذلك تكثير عباد الله تعالى وأمة الرسول ﷺ وتحقيق مباهاة الرسول ﷺ بهم كما قال: (تناكحوا تناسلوا تكثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة) ... وهذا التناسل عادة لا يكون إلا بين الذكور والإناث، ولا يحصل ذلك بينهما إلا بالوطء فجعل الشرع طريق ذلك الوطء النكاح»[(١)].

(*) كاتبة ومؤلّفة ومتحدِّثة في الفكر والأدب وعُمران الذات.

(١) المبسوط، للسرخسي (١٩٢/٤-١٩٣).

تضيق النسوية ذرعًا بالتصوُّرات والنصوص الشرعية المتعلقة بالزواج.. وتنظر لها شزرًا بنظرة اتهام وعداوة، فيزعمون أن في التصور الشرعي للزواج هضمًا فادحًا وقادحًا للمرأة

وقال ابن قدامة رحمه الله: «مصالح النكاح أكثر، فإنه يشتمل على تحصين الدين، وإحرازه، وتحصين المرأة وحفظها، والقيام بها، وإيجاد النسل، وتكثير الأمة، وتحقيق مباهاة النبي ﷺ، وغير ذلك من المصالح الراجح أحدها على نفل العبادة، فمجموعها أولى»[١].

لكن تضيق النسوية -وغيرها من الطاعنين في دين الإسلام- ذرعًا بالتصورات والنصوص الشرعية المتعلقة بالزواج.. وتنظر لها شزرًا بنظرة اتهام وعداوة، فيزعمون أن في التصور الشرعي للزواج هضمًا فادحًا وقادحًا للمرأة، من حيث المآخذ التالية:

المأخذ الأول: اختزال الزوجة في أداة متعة للزوج:

فيزعمون أن الشرع يختزل المرأة في أنها أداة للجنس والمتعة فحسب، لذا فإن عليها أن تجيبه إلى طلبه متى أراد، ولا يحق لها أن تمتنع عن ذلك.

ويستشهدون ببعض النقولات عن أهل العلم في الحديث عن الاستمتاع ومكانته في الحياة الزوجية.

لكن إذا نظرنا في صور العلاقات العاطفية بين النساء والرجال خارج إطار الزواج، سنجد أن الرضا المجتمعي والقانوني عنها يربطها بشرط واحد: رضا الطرفين (حتى السنّ ليس قيدًا مُجمَعًا عليه عالميًا)[٢]، وذلك ضمن تصور يقوم على مبادئ حرية الفرد في بدنه وحقه في ممارسة الجنس ما دام راغبًا، وما دام ليس طرفًا في «صلة مُلزِمة قانونيًا Legally Binding Relationship» (وهي في هذا السياق الزواج أو أية علاقة عاطفية بين أطرافها عقد معتدّ به قانونيًّا Contract).

والشكل الأشهر لتلك الصلات «الحرة» هي عُرف المخادنة Boyfriend/Girlfriend، يليه عرف الجنس العابر القائم على معاشرة عدة أطراف دون التزام معنوي بالوفاء لواحد فحسب Casual Sex، أو ذلك الذي يقوم على الاتصال الجنسي بهدف التعزية والسلوان Pity/Sympathy Sex. هذا فضلاً عن زنا المحارم Incest حيث يأتي الأخ أخته مثلاً، وهو ممارسة مباحة في كثير من الدول تتصدرها قارة أمريكا الجنوبية بكاملها، وفرنسا وأسبانيا وروسيا وغالب دول أوروبا[٣].

بناء عليه، فالسؤال المطروح هو: ما غرض كل أشكال الصلات «الحرة» بين الرجال والنساء خارج إطار الزواج إذن؟! ألا تقوم كلها على الاستمتاع بالمرأة؟ إذ لا يدخل رجل في أية علاقة من أولئك إلا وهو طالب للمتعة فقط لا خلاف، تمامًا كما تطلبها صاحبتها لنفسها وترضى بذلها من نفسها. فإذا كان مكمن إكرام المرأة في تلك العلاقات «الحرة» هو أن تكون الصلة والممارسة برضا الطرفين وحريتهما الشخصية فحسب، فلماذا إذن تبتئس النسوية من تصور الزواج الشرعي طالما كان شكلاً من أشكال الصلة الجنسية التي رضيها أصحابها؟

ألأنه يتضمن إمهار المرأة والنفقة عليها وعلى الأولاد مدة الزواج، وتمتيعها والنفقة على الأولاد بعد الطلاق، وهذه قطعًا «صفقة» رابحة لكفة المرأة مقارنة بمن تدخل وتخرج بنفسها مجرّدة من ذلك كله كما في تلك العلاقات العابرة؟

أم لأن إدخال المال في المعاملة يُزري بأطرافها؟ كأن الدعم المالي ليس من أكبر هموم من يُعرفن بالأمهات العازبات Single Mothers اللواتي يَعِشن في «فقر نسبيًا» كما جاء في أحدث تقرير لصيحفة الجارديان البريطانية؟[٤].

أم لأن الإشكال في تأطير الصلة بالتزامات قانونية وأخلاقية تكفل لطرفي العلاقة حقوقًا وتُملي واجبات تمنع التفلّت وتصونه من العبث، اللذين هما الوجه الآخر لما يسمونه الحرية البدنية والبحبحة الجنسية؟

(١) المغني، لابن قدامة (٣٤٣/٩).

(٢) تصنيف الدول من حيث سن الرضا Age of Consent لعام ٢٠٢٣م المنشور على موقع worldpopulationreview.com

(٣) ينظر مادة: قانونية سفاح القربى (Legality of incest)، المنشورة على موسوعة ويكيبيديا باللغة الإنجليزية.

(٤) ينظر مادة: «من الصعب تنمية المال»: تقول الأمهات العازبات: إنهن بحاجة إلى الدعم 'It's Hard Getting Money to Stretch': Single Mothers Say They Need Support: على موقع صحيفة الغارديان.

مقارنة علاقة الرجل بالمرأة

بين عقد الزوجية في الإسلام وما يدعو إليه أعداء الزواج

الزواج في الإسلام	العلاقة التي يدعو إليها أعداء الزواج
1. الزواج معلن ويتكفل الزوج بالمسؤولية والالتزام	1. لا يوجد التزام بالإعلان ولا بالمسؤولية
2. لكلا الزوجين حقوق وواجبات واضحة ومحددة أثناء استمرار العلاقة وعند الانفصال	2. ليس هناك حقوق ولا واجبات محددة، والعلاقة غالبًا ما تكون مؤقتة
3. يقدم الزوج المهر دلالة على الرغبة في الزواج	3. قد تتضمن مقابلًا ماديًا مقابل الاستمتاع
4. يلتزم الزوج بالنفقة طوال فترة الزواج	4. لا يلتزم الزوج بأي نفقة خلال مدة العلاقة
5. يلتزم الزوج بما ينتج عن الزواج من الأبناء وبما يحتاجونه من نفقة ورعاية	5. لا يلتزم الرجل بما قد ينتج من حمل
6. يشارك الزوج زوجته مسؤولية تربية الولد	6. تتحمل المرأة تربية ولدها في كل الظروف
7. يقدم الرجل الحماية لزوجته وأبنائه في جميع الظروف	7. تبقى المرأة وأولادها عرضة للطمع والاعتداء

ثم إنه حتى الصلات العابرة لا تخلو من مقابلٍ ماديٍّ ما، بل صارت في حد ذاتها مهنة وصنعة، ومع ذلك لا يُعد مالها أزرى وأحطّ في عرف النسوية، التي دعمت نساء تلك الصنعة وطالبت باحترام حقهن في الاختيار المهني أو حق التكسب بـــ «الطرق القانونية» نظرًا لأن الاعتبارات الأخلاقية نسبية وغير مُلزمة جماعيًا. وطالبت كذلك بتغيير الاصطلاحات المستعملة في حقهنّ[1]: فمن «عاهرة Whore» إلى «مومس Prostitute» إلى «المشتغلة بصنعة الجنس أو العاملة في حقل الجنس Sex Worker». وصارت لتلك الفئة الآن جمعيات ونقابات «محترمة»![2].

تقبل النسوية أشكالاً من العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة بحجة رضا الطرفين، والزواج بهذه الحسبة «صفقة» رابحة لكفة المرأة مقارنة بالعلاقات العابرة، فهو لا يحصل إلا برضا الطرفين، ويتضمَّن فوق ذلك: إمهار المرأة والنفقة عليها وعلى الأولاد مدة الزواج، وتمتيعها والنفقة على الأولاد بعد الطلاق!

المأخذ الثاني: اختزال الزوجة في وعاء إنجاب:

وأما القول بأن الزواج يختزل المرأة في وعاء للإنجاب، فمجاراة ذلك المنطق تقتضي أن يُختزل الرجل كذلك بوصفه جيبًا أو بيضة الذهب التي ترقد عليها الزوجة! هذا فضلاً عن أن للرجل دوره كذلك في عملية الإنجاب سواء من حيث نجاح

(١) دلالة الألفاظ العربية غير الأجنبية فلا يقاس على العربية لتصور ترقي الدلالة بل يُراجع التفسير الدقيق لكل مصطلح في إحدى القواميس الإنجليزية المعتمدة، مثل: أكسفورد Oxford ، كامبريدج Cambridge ، كولينز Collins .

(٢) ينظر مادة: العاملون بالجنس أم المومسات؟ لماذا الكلمات مهمة؟ Sex workers or prostitutes? Why words matter، على موقع: inews.co.uk، ومادة: العنف ضد العاملين بالجنس Violence against sex workers على موقع BBC، ومادة: قادني عملي مومسًا إلى معارضة إلغاء التجريم، My work as a prostitute led me to oppose decriminalization، على موقع: BBC.

الإخصاب[١] أو تحديد جنس المولود[٢]. فالإنجاب عملية مشتركة بين الزوجين ليست مختصة في حِمْلِها بأحدهما فحسب، وإن تفاوتت فيها طبيعة الأدوار ومقدارها تبعًا للاختلاف في التكوين الجسمي والدور في القيام والتربية.

اللافت أن ميزان النسوية متضارب في وزن قيمة المرأة بحسب دورها والمسؤولية المنوطة بها، فإنها إذا حُمِّلت الحِمْل الأكبر رأت ذلك افتئاتًا عليها، وإذا كُلِّفت بالأهون رأت ذلك تقليلاً من أهليتها، فلا هذا محمود ولا ذاك!

والأدهى أنها تسخط على الحمل الطبيعي وتلفق له تهم العداوة والظلم تجاه المرأة، ثم تنبري للدفاع عن الحمل غير الطبيعي (تأجير الأرحام Surrogacy أو الأم البديلة Surrogate Mother) باعتباره حريةً شخصيةً ودلالةً على ترقِّي المرأة في حقِّ التصرُّف في بدنها!

ثم هل الصلات المفتوحة أو العابرة خارج إطار الزواج تحرر المرأة من طبيعة خلقتها؟، بوصفها – حقيقة– حاضنة الإنجاب؟ بالعكس، ما تزال المرأة تعاني آثار تلك الصلات في الحمل العابر أو غير المقصود، حتى مع استخدام موانع الحمل. فكان الحل في أن تعود النسوية فتوهم المرأة أن الكرامة ستكون في كسب حق الإجهاض قانونيًا، وقد «كسبته» بالفعل معنويًا لكنها في الحقيقة من تدفع كلفة حمل النطفة ثم إجهاضها من عمر جسمها وصحتها البدنية والنفسية، فضلاً عن الكلفة المالية. وتزداد قتامة الموقف ووطأته إذا اضطرت للولادة ثم هجر وليدها لضعفها عن تحمل مؤنة رعايته وتربيته! ومن اللافت أن القوانين التي تكفل حق الإجهاض لا تتكفل بالعملية نفسها بل هي تبع لخطة التأمين الصحي للمريضة إذا كانت عندها[٣].

فأين تكريم المرأة بتأييدها في قرار الإجهاض حتى النهاية، مقارنة مثلاً بالتأييد الذي يحظى به الشذوذ الجنسي، حتى تعهدت حكومات دول مثل كندا بدفع ما قيمته ٧٥ ألف دولار مساهمة منها في تغطية تكاليف عمليات التحوير الجنسي لكل راغب[٤]؟!

وفوق كل ذلك، تجد الاشمئزاز من دلالات اصطلاحات الحمل والإنجاب، والاستعلاء على اعتبار المرأة «حاضنة البويضات»، يختفيان من المشهد عندما يكون الكلام على اصطلاحات التحوُّر الجنسي والحمل البديل. ففي أحدث صيحة «علمية» نشرت صحيفة Times of London البريطانية في شهر فبراير من هذا العام (٢٠٢٣)[٥] بيانًا عن «مشروع لغة البيئة وعلم الأحياء التطوري (EEB)» تقول فيه: إنه بدلاً من مصطلحات «ذكر» و«أنثى» التي لا تخلو من دلالة تمييز جنسي عنصري لا يتفق، واتساع النوع الجنسي المعاصر، تجب الإشارة إلى الذكر بوصفه «منتج الحيوانات المنوية Sperm-producer»، والأنثى على أنها «منتجة البيض Egg-producer»، والأب والأم في المجال العلمي يُشار لهما باصطلاح «الوالد Parent»، والوالدة «المتبرعة بالبويضات Egg-donor»، والوالد «المتبرع بالحيوانات المنوية Sperm-donor»!

لم يلق هذا التعريف الجديد للمرأة على أساس بويضاتها إلا الترحاب بوصفه صياغة «أكثر شمولية ودقة»، وفقًا لبيان صحفي صادر عن جامعة كولومبيا البريطانية التي تشارك بثلاثة باحثين في ذلك المشروع. فعجبًا أين النائحات البواكي على الاختزال والامتهان؟! والأدهى أن تُنسب هذه الشطحات «للدقة العلمية» في ظل تجارب لاستئصال مبايض النساء وتركيب أرحام

(١) ينظر مادة: دراسة وجدت أن «الساعة البيولوجية» للذكور يمكن أن تؤثر على فرص الولادة أكثر مما كان يعتقد، Male 'biological clock' can affect chances of birth more than was thought, study finds، على موقع صحيفة الغارديان.

(٢) نظر مادة: صبي أو فتاة؟ إنه في جينات الأب، Boy or girl? It›s in the father›s genes، على موقع: sciencedaily.com، ومادة: ما الذي يؤثر على جنس الطفل؟ What Influences a Baby›s Sex?، على موقع health.com

(٣) تقرير بعنوان: بكم التكلفة؟ الدفع مقابل رعاية الإجهاض من قبل النساء الأمريكيات، At What Cost? Payment for Abortion Care by U.S. Women، المنشور في نشرة قضايا صحة المرأة، womens health issues، الصادرة بداية شهر مارس ٢٠١٣م، موقع: guttmacher.org

(٤) ينظر مادة: الكنديون لديهم أفكار مختلطة حول التمويل الحكومي الذي يصل إلى ٧٥ ألف دولار في إجراءات تأكيد النوع الاجتماعي (الجندر) للموظفين الفيدراليين، VoK In Gender-Affirming Procedures$ Canadians Have Mixed Thoughts about Government Funding up to for Federal Employees، على موقع: nowtoronto.com

(٥) لندن تايمز: يقول العلماء إنه يجب حظر «المصطلحات الثنائية» للذكور والإناث، The London Times: "Binary terms' male and female should be banned, say scientists". وأيضًا: نيويورك بوست: «العلم بحاجة إلى التوقف عن استخدام مصطلحات مثل ذكر وأنثى وأم وأب، كما يقول الباحثون»: The New York Post: "Science needs to stop using terms like male, female, mother and father, researchers say":

صناعية للرجال، إذن إنها تجعل هذه التعريفات غير علمية وفق منطق تلك الفئات، إذا صح أن يسمّى منطقًا!

تهاجم النسوية حمل المرأة الطبيعي وتلصق به شتى التهم، ثم تدافع عن الحمل غير الطبيعي، وتعتبره حرية ورقيًا وتطورًا! وحتى تخرج من مأزق تبعات الحمل المحرم.. صورت أن الكرامة في كسب حق الإجهاض قانونيًا، لكن بقيت المرأة هي من تدفع كلفة حمل النطفة ثم إجهاضها من عمر جسمها وصحتها البدنية والنفسية، فضلاً عن الكلفة المالية التي تتحملها وحدها

المأخذ الثالث: إلزام الزوجة بتلبية زوجها فيه حجر على حرية المرأة في بدنها:

لا يُذكر مفهوم الحرية إلا ويلزم استحضار حقيقة أنه لا مخلوقَ حرٌّ حريةً كاملةً على الحقيقة، وأن كل إنسان مقيّد لا ريب بأدبيات المرجعية التي ينتسب لها ولَو كانت قانون دولة أو عرف مجتمع. وكذلك لا تتم لإنسان حرية في بدنه بإطلاق، فهو لا يتحكم مثلاً في العمليات الحيوية كالتنفس والإخراج، وقد يستعصي عليه النوم رغم طلب كلِّ أسبابه، ويمرض رغم التحصينات أو يشفى رغم ميؤوسية حالته في التقدير الطبي. وينطبق على المرأة كل هذا، ويُضاف له ما سبق بيانه من أنها قد تحمل وإن اتخذت موانع حمل، أو تصاب بمرض جنسي وإن اتخذت مضادات له، وهكذا.

فإذا جئنا لحرية البذل الجنسي، كان السؤال هو: ما وجه الكرامة فيها؟ أن تكون المرأة حرة في اتخاذ قرار الاتصال ببدنها متى شاءت كيف شاءت، أليس كذلك؟ فإلى أي مدى هذا المبدأ مُطبّق إذن بهذا التصور النموذجي؟ كم من امرأة بل شابة أو فتاة تبذل عِرضها طواعية وعن رضا وبمشيئتها؟ نعم، لكن بسبيل الخديعة والحيلة لنيل القرب من شخص تحبه وهو يُظهر لها رغبته فيها فتحسبه مبادلة لحبها، أو لنيل مصلحة ما لا سبيل لها إلا بالمساومة على العِرض، ثم إذا قضى منها وطرًا تركها للحسرة والأوجاع البدنية والنفسية، فلا عِرضُها صَيّن، ولا وُدّها مخطوب، ولا خاطرها مجبور، ولا عوض مبذولٌ لها، فما وجه الكرامة في مثل هذه الحرية، إن صح أن تسمى حرية؟!

بل كم تبذل نفسها لتحقيق مصلحة دراسية أو وظيفية لا تكاد تحصل عليها إلا بالمساومة على عِرضها مقابل ذلك؟ وهل في هذا حرية واختيار وكرامة أم إجبار مقنع وامتهان وإلجاء.

ثم مَن المستفيد حقيقة من تصور الحرية النسوي، المرأة أم الرجل؟ إن الرجل يمكنه في ظل هذا المبدأ وحده أن يتمتع بآلاف النساء دون أن يحمل أي همّ أو مسؤولية بعد مغادرته الفراش، فلماذا سيفكر في الزواج إذن؟! ولذلك صار على المرأة أن تكون هي الباذلة إذا شاءت أن «تحتفظ» برجل، بالإنفاق المالي والمعنوي والبدني في شتى أنواع التجمل، ومقاسمته مصاريف البيت أو الاستمرار في تحمل نفقاتها هي بنفسها أو الاستمرار في سكن مستقل حتى لا تصير «عالة» عليه ... ومع ذلك لا ضمانة إذ لا ميثاق بينهما، فيمكنه أن ينهي العلاقة متى سئم، ويمكنها هي كذلك بالتأكيد لكنها الغارم الأكبر في الحالتين.

وقل مثل ذلك عن قانون الطلاق عندما تدخلت فيه النسويات فجعلن للمرأة الحق في نصف ثروة الرجل، إذ تفنَّن الرجال في التهرُّب من ذلك إما بالامتناع عن الزواج وإن اقتصر في علاقته على واحدة وأنجب منها، أو بتسمية ممتلكاته باسم أمه أو أبعد أقاربه حتى يضمن ألا يُصادَر نصفها عند الطلاق. فهل أنصفت المساعي النسوية المرأة فعلاً بانتزاع حقوق لها من الرجال عنوة (كما ترى) أم جنت عليها بتحويلها إلى عدو في نظر الرجل، يتحايل في تحصيل حاجاته منه دون مغرم أو بأقل قدر ممكن منه (كما هو واقع)؟

فإذا جئنا للزواج في التصور الشرعي[1]، وجدنا كل الأحكام والحقوق والمسؤوليات متقررة ظاهرة، فكلا الطرفين يأتيانه برضاهما وعن علم مسبق بما سيُسْتَحق لهما أو منهما. ثم من حيث حدود الواجب البحت، وعند موازنة كفوف المكاسب المفروضة، نجد أنه تترتب للزوجة منافع عديدة (كالمهر والسكنى والنفقة والحضانة والمكانة المحترمة أمًا وزوجة) في مقابل منافع معلومة منها (الإمتاع) للزوج، والتي لها فيها نصيب، إذ مما

(١) الأحكام المذكورة في هذه الفقرة هي على وجه العموم السطحي، بغرض التمثيل فحسب، فلا يؤخذ بها على ظاهرها.

يندر الالتفات له في مسألة المتعة أن المرأة تستمتع بزوجها كما يستمتع بها –مع اختلاف طبيعة الاستمتاع وقدره– وتُؤجَر معنويًا على المعاشرة مثلما يؤجر هو، ما احتسباها: (وفي بُضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرًا)[1]؛ ثم تؤجر هي فوق هذا وذاك بصفة مخصوصة من حيث طاعتها لزوجها واستجابتها له. ثم تمتاز عليه بأنها تؤجر وتعوّض ماليًا كذلك، بالنفقة عليها طوال مدة الزواج ولو كانت غنية ولها ذمة مالية مستقلة، وبمقدار مالي مخصوص هي حرة التصرف فيه (المهر). ثم إذا أراد الرجل أن يطلقها بدون نشوز أو سوء عشرة منها يمتعها بمبلغ جبرًا لخاطرها عما أسماه الفقهاء «إيحاشها بالفراق»، والوَحشة هي الخلوةُ والهَمُّ. بل وتستحق الزوجة كذلك الأجرة عوضًا عن الرضاع، ولا يحق للزوج استرجاع هذه الأجرة عند حصول الخلع أو الطلاق. وعند الحنابلة والشافعية أن الزوجة إذا طلبت أجرًا على إرضاع ولدها أو ولد زوجها من غيرها وجبت على الزوج، وعند الحنفية أن الأجرة للمطلقة، أما التي في عصمة زوجها فهو ينفق عليها. وفوق كل ذلك، جعلت آداب الشرع وفنون العشرة الزوجية مخرجًا للزوجة إذا حصل ودعاها زوجها للفراش وهي غير قادرة على إجابته.

مَن المستفيد حقيقة من تصور الحرية النسوي، المرأة أم الرجل؟ إن الرجل يمكنه في ظل هذا المبدأ وحده أن يتمتع بآلاف النساء دون أن يحمل أي همّ أو مسؤولية بعد مغادرته الفراش، فلماذا سيفكر في الزواج إذن؟! ولذلك صار على المرأة أن تكون هي الباذلة إذا شاءت أن «تحتفظ» برجل، بالإنفاق المالي والمعنوي والبدني في شتى أنواع التجمل، وبلا ضمانات!!

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٦).

كل هذه الامتيازات يتم هضمها بل التعتيم عليها لصالح التركيز على استحقاقات الرجل من المرأة بعقد الزواج، فمن المنتفع الأكبر في هذه الصلة بهذا التصور وهذه الضوابط؟ وأين التصور الشرعي للزواج من غيره من التصورات لا سيما الغربي النسوي الذي يجعل الزوجة –في أكرم الأحوال– لا تشارك في النفقة المنزلية؟! وأي منطق ذاك الذي يرى أن من الامتهان للمرأة أن يُخصّص لها عِوَض على الاستمتاع بها مع حصول الاستمتاع لها، في ظل منظومة تصونها منذ بدء الصلة بطلب خطبتها حتى آخر الصلة سواء بالوفاة أو الطلاق، وما بينهما من خدمة ورعاية وإنجاب؛ وذلك في مقابل تحميلها تبعات ذلك الاستمتاع وحدها وفق منظور التحرر النسوي؟!

ختامًا:

إن التصور الشرعي لصلة الزواج –لا أي تصور آخر– هو الوحيد الذي يستعلي على ما عداه، ويعلو بكرامة أطرافه كلهم دون استثناء. فهو وإن اعتمد مبدأي الاستمتاع ورضا الأطراف (المعتمدين في أشكال الصلات الأخرى) إلا أنه ينفرد بجدّية المقاصد والمآلات، ويؤصّل لمنظومة متكاملة بيّنة الحدود والحقوق لتصون الأطراف قبل الزواج وأثناءه وبعده، وفي حال وجود الأولاد أو عدمه، وعند التعدد أو الإفراد. ولا تجد دستورًا ولا تشريعًا حفَّ الصلة بين الرجل والمرأة من كل وجه، أجنبيين كانا أو محارم، زوجين كانا أو غير ذلك، وأحاط بكل مسائلهم وعواقبها من أطرافها، كما أحاط تشريع الله تبارك وتعالى؛ ولا عجب؛ فهو من مشكاة الله تعالى الذي خلق ابتداء ويحاسب انتهاء.

ولا يمكن تقدير تصور الزواج الشرعي حق قَدْره حتى يُعلَم بتفاصيله كاملاً، فهو لا يقوم على تكريم أطرافه فحسب بل هو بحد ذاته كرامة، حتى سماه الله تعالى ميثاقًا غليظًا: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠-٢١]، وذكر القرطبي الأقوال الثلاثة في تفسير «الميثاق الغليظ»:

» **الأول:** قوله عليه السلام في خطبة الوداع: (فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)[١].

» **الثاني:** قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

» **الثالث:** عقدةُ النكاح: قول الرجل: نَكَحتُ وملكتُ عقدةَ النكاحِ؛ وقال قوم: «الميثاقُ الغليظُ: الولد»[٢].

> **التصور الشرعي لصلة الزواج هو الوحيد الذي يستعلي على ما عداه، ويعلو بكرامة أطرافه كلهم دون استثناء. فهو وإن اعتمد مبدأي الاستمتاع ورضا الأطراف (المعتمدين في أشكال الصلات الأخرى) إلا أنه ينفرد بجدّية المقاصد والمآلات، ويؤصّل لمنظومة متكاملة بيّنة الحدود والحقوق لتصون الأطراف في كل الحالات والاحتمالات**

فأين تجد مثل غلظة هذا الميثاق الجليل في أي تصور آخر للزواج، ناهيك عن الصلة العابرة بين رجل وامرأة؟! لذلك فمن المثير للعجب بعد كل هذه التفاصيل والتدقيقات والضوابط أن يقال إن الزواج يحطّ من قدر المرأة فيجعلها أداة متعة للرجل! وإنما التشريع الرباني للزواج هو الذي يصون تحصيل المتعة عن أن يكون لعبة، ويصون أطراف العلاقة عن العبث الذي تترتب عليه الأمراض واختلاط الأنساب وحالات الاكتئاب والانتحار وغيرها من آفات النزوات الهائمة! وتأمل ما جاء في تفسير الألوسي عن ختم الآية بالتفكر في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]: «وذكر الطيبي أنه لما كان القصد من خلق الأزواج والسكون إليها وإلقاء المحبة بين الزوجين ليس مجرد قضاء الشهوة التي يشترك بها البهائم، بل تكثير النسل وبقاء نوع المتفكرين الذين يؤديهم الفكر إلى المعرفة والعبادة التي ما خلقت السماوات والأرض إلا لها، ناسب كون المتفكرين فاصلة هنا»[٣].

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٠٣/٥).
(٣) تفسير الألوسي (٣٢/١١).

حديث بعض الأرقام عن إبداع العزيز العلَّام

م. فداء ياسر الجندي (*)

العقل هبةٌ وهبها الله تعالى للإنسان، وميَّزه بها عن سائر المخلوقات، وزوَّده بإمكاناتٍ متقدِّمةٍ للتفكُّر والتدبُّر، ثم أودع أسرار خلقه وصنعه البديع في كل ما تراه العين وتدركه الحواس من المخلوقات، وجعل استخدام هذا العقل في الاستدلال على الخالق العظيم جزءاً من ابتلاء الإنسان واختباره، وهذه المقالة تأخذنا في جولة ماتعة في عجائب صنع الله في جسم الإنسان

رحم الله الشاعر المبدع أبا العتاهية، قائل بيتين من الشعر، تمنى بعض الشعراء لو يبادله عليهما بكل شعره، وهذان البيتان هما قوله:

فيا عجبًا كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

قد قال أبو العتاهية هذين البيتين قبل أكثر من ألف سنة، يوم لم يكن هناك تلسكوبات ترى الفضاء الفسيح والمجرات الشاسعة، ولم يكن هناك مجاهر إلكترونية ترى تفاصيل الخلايا الحية وما يحدث فيها من تفاعلات وأعمال تذهل الألباب، قد اكتفى شاعرنا بما يرى حوله من الخلق والكائنات، وتعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والبحار والأنهار والمحيطات، وغير ذلك مما يراه حوله بعينه المجردة، ليوقن أنَّ وراء الكون إلهًا قديرًا حكيمًا، بل ليعجب -وحق له أن يعجب- من الذين يجحدون الله تعالى ويعصونه.

أفلا يحق لنا أن ندهش ونستغرب، عندما نرى اليوم علماء ملحدين، وقد كشف لهم العلم من عجائب الكون والخلق، ما لا يسع من يدركه إلا أن يقر صاغرًا بعظمته سبحانه؟

(*) كاتب من سورية.

نحن نعيش في عصر العلم والتقدم العلمي، عصر التلسكوبات التي نقلت لنا صورًا من أعماق الفضاء، فكشفت لنا من أبعاد الكون ما لا تكاد عقولنا تتصور أبعاده من حيث الضخامة، ونحن أيضًا في عصر المجاهر الإلكترونية، التي كشفت لنا من دقائق الذرة، ومما يجري من تفاعلات في داخل الخلايا الحية، ما يصعب على خيالنا أن يتصور دقته وإحكامه، مع الضآلة الشديدة في حجمه، وأصبح العلم يقدم لنا كل يوم، بهذه الوسائل وغيرها، أدلة وبراهين جديدة على بديع صنع الله في خلق الكون والكائنات، ورغم ذلك ينكر المنكرون وجوده سبحانه، رغم ما تنطق به الأدلة والبراهين العلمية عن عظيم خلقه ودقيق صنعه وروعة حكمته.

وأعجب وأكبر الآيات التي كشف عنها العلم الحديث، هي آيات موجودة في جسم الإنسان نفسه، وكأن العلم الحديث يفسر قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، ومع ذلك نرى ممن يحمل تلك الآيات البينات بين جنبيه بل ومن بعض العلماء الذين اكتشفوها ووثّقوا وجودها من ينكر وجود من وضعها فيه وسخرها له، وسنستعرض في السطور التالية نقطة صغيرة من بحار ما توصل إليه العلم من حقائق قاطعة مدهشة مذهلة، وبلغة الأرقام، لا يملك من يطالعها بعقل متفتح وفطرة سليمة، إلا أن يوقن أنها من صنع وتقدير خالق عليم حكيم قدير، ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧].

أرقام من عجائب القلب:

إن القلب الذي لا يزيد حجمه عن حجم قبضة اليد إلا قليلاً، هو آلة مدهشة تتفوق بشكل هائل على أي آلة صنعها الإنسان، فهو يمر في كل ثانية من الزمن بدورة من التمدُّد والانكماش، فينبض في داخل كلِّ إنسان منذ كان جنينًا في بطن أمه، إلى أن تنتهي حياته، ويصل عدد نبضات قلب إنسان عاش خمسًا وسبعين سنة إلى مليارين ونصف مليار نبضة بلا توقف، لا يحتاج معها محركًا ولا بطارية ولا كهرباء ولا وقود، وقودُه الغذاء من لحوم وخضار، وطاقته يستمدُّها من أوكسيجين الهواء، يعمل دون إرادة الإنسان الذي يحمله، تزداد نبضاته تلقائيًا إذا بذل الإنسان جهدًا يحتاج لمزيد طاقة، وتهدأ إذا نام أو استراح، يتألَّف من مليارات من الألياف العضلية، المصمَّمة خصيصًا لمقاومة التمدُّد والإنكماش، ولتتقلَّص وتنبسط باستمرار دون توقُّف مادام الإنسان حيًا، ونبضها ذاتي دون أي تأثير خارجي عليها. وكل واحد من الألياف العضلية التي تشكل عضلة القلب، يحتوي على تريليونات من الجزيئات المتراصة المصفوفة بإحكام ودقة شديدين، لتشكل شعيرات عضلية دقيقة جدًا، قادرة على التمدد والتقلص، يؤدي تمددها وتقلصها المنتظم إلى حدوث نبض القلب والدورة الدموية الناتجة عنه.

استدلَّ الأوَّلون على وجود الخالق وعرفوا عظيم قدرته بدون المخترعات الحديثة من التلسكوبات والمجاهر الإلكترونية، بل بما تراه العين المجردة، أفلا يحقّ لنا أن ندهش ونستغرب، عندما نرى اليوم علماءَ مُلحدين، وقد كشف لهم العلم من عجائب الكون والخلق، ما لا يسع من يدركه إلا أن يقر صاغرًا بعظمته سبحانه؟

أرقام من عجائب الدم:

مع كل تقلص للقلب أثناء نبضه، يضخُّ مئات المليارات من خلايا الدم الحمراء لتسير عبر مئات الكيلومترات من العروق الدموية الدقيقة التي تسمَّى الشعيرات الدموية، وكلُّ شعيرةٍ دمويةٍ مَهمَّتُها إيصال مليار جزيء أوكسيجين O_2 من الرئتين إلى الأنسجة مع كل نبضة، والكريات الحمراء نفسها هي بحدِّ ذاتها معجزةٌ من معجزات الهندسة الحيوية، فكلُّ كرية دموية حمراء تقوم خلال عمرها القصير الذي لا يزيد عن ١٢٠ يومًا، بالجريان مئات الآلاف من المرات، ما بين القلب والأنسجة، تقطع خلالها مئات الأميال عبر الأوعية الشعرية، والأمر المدهش المذهل، أنَّ قُطر الكرية الحمراء لا يزيد عن ١٠ ميكرون (الميكرون يعادل جزء من ألف من المليمتر)، ولها غلاف عجيب، طري جدًا وقوي جدًا، أكثر طراوة بألف مرة من المطاط السائل، وأقوى على مقاومة الشد من الحديد، وهذا ما يمكِّنها من تحمُّل التغير في شكلها أثناء مُرورها في بعض الشعيرات الدموية، التي يبلغ قطرها في أغلب الأحيان ٥ ميكرون، أي نصف قطر الكرية الحمراء الواحدة، وآخر ما نذكره من عجائب كريات الدم الحمراء، أنَّ نقيَّ العظام في الإنسان ينتج في كل ٦٠ ثانية ١٨٠ مليون كرية دم حمراء.

أرقام من عجائب الرئتين:

هل تعلم عزيزي القارئ كيف يتوزع الهواء الذي تتنفَّسه في الرئتين؟ نحن نأخذ الهواء بالشهيق،

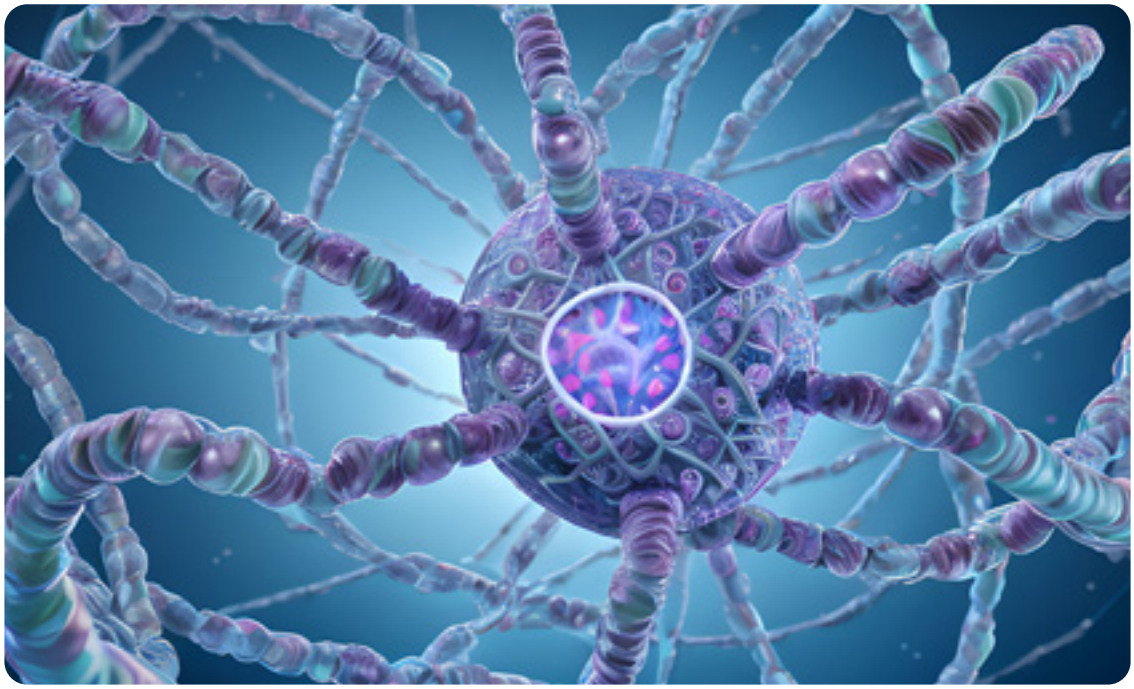

ونخرجه بالزفير، وبين الشهيق والزفير أعاجيب وغرائب ومعجزات، فالهواء الذي نأخذه في الشهيق يتوزَّع على نصف مليون كيس هوائي، نعم، نصف مليون، ٥٠٠,٠٠٠ كيس هوائي موجودة كلُّها في الرئتين، وهو رقمٌ يصعُب تخيُّله، والذي يصعب تخيله أكثر هو رِقة الغشاء الذي تتكوَّن منه تلك الأكياس (وتسمى في المراجع الطبية الحويصلات الرئوية)، فسماكة جدار الكيس هي ٠,٢ ميكرون، والميكرون هو جزء من ألف من المليمتر، أي لو أمكن تقسيم المليمتر الواحد إلى عشرة آلاف جزء، فإن سماكة تلك الأغشية تعادل جزئين فقط من الآلاف العشرة، وحتى نقرِّب للقارئ الكريم الأمر، يكفي أن نقول: إن سماكة ورقة من كتاب أكبر من سماكة الغشاء الذي تتألف منه تلك الأكياس الهوائية بمائتين وخمسين ضعفًا!! وهذه الأكياس كلُّها مصفوفة بتنسيق وترتيب مذهل مدهش داخل رئتين لا يزيد حجمُهما عن ٥ ليترات، رغم أن مجموع مساحة الأغشية كلها في الرئتين تعادل تقريبًا مساحة ملعب تنس.

ولم تنقض عجائب تلك الأكياس بعد، فهي رغم رقتها الشديدة، قويةٌ بما فيه الكفاية لتتحمَّل التمدُّد والتقلُّص الناتجين عن دخول الهواء إليها وخروجه منها أثناء الشهيق والزفير، فهي تتمدد وتتقلص كل يوم ٢٠,٠٠٠ مرة (عشرين ألف مرة)، هو الرقم المتوسط لعدد مرات الشهيق والزفير اليومي، ومن خلال هذه الأغشية تحدث عملية تبادل للغازات بين هواء الشهيق، وبين الدم الموجود في الشعيرات الدموية المحيطة بتلك الأغشية، فيأخذ الدم الأوكسيجين من الهواء الذي يدخل الأكياس أثناء الشهيق، ويطرح فيها غاز الكربون ليحمله الزفير إلى خارج الجسم، أي إننا فعليًا أمام نظام يستطيع تزويد خمسمائة مليون محطة لتبادل الغاز بين الهواء المشبع بالأوكسيجين، وبين الدم الذي سيأخذ الأوكسيجين ويطرح غاز الكربون، وكل ذلك في تجويف لا يزيد حجمه عن ٥ ليترات.

أرقام من عجائب الدماغ:

إن دماغ الإنسان هو أكثر الأعضاء أو الأدوات تعقيدًا على وجه الأرض، وهذا أمر مجمعٌ عليه بين كل علماء الدنيا، وفيه من العجائب والغرائب ما لم يكتشفه العلم، رغم التقدُّم الكبير في علوم الطب والأحياء، إلا النزر اليسير منه، وهاكم لمحةً بسيطةً جدًا من بعض الأرقام التي يعرفها العلم اليوم.

تخيَّل عزيزي القارئ أن مليمترًا مكعبًا واحدًا من القشرة الدماغية للإنسان (مركز التفكير والإرادة)، يحتوي على ١٥,٠٠٠ خلية عصبية، و١٥,٠٠٠ خلية داعمة للخلايا العصبية، وأربعة كيلومترات من النهايات العصبية، وأربعمائة مليون، نعم ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ وصلة عصبية بين النهايات العصبية؟ وهل تعلم أنَّ الدماغ البشري يجري فيه ستة ملايين تفاعل كيميائي كل ستين ثانية؟

دماغُ الإنسان هو أكثر الأعضاء أو الأدوات تعقيدًا على وجه الأرض، وهذا أمر مجمعٌ عليه بين كل علماء الدنيا، وفيه من العجائب والغرائب ما لم يكتشفه العلم، رغم التقدُّم الكبير في علوم الطب والأحياء، إلا النزر اليسير منه

أرقام من عجائب العين:

تحتوي شبكية العين على أكثر من مائة مليون خلية بصرية، وهذه الخلايا على أنواع مختلفة، منها ما يختص بتمييز الألوان وتصفية الرؤية وتوضيحها في الإضاءة العادية، ومنها ما يختص بالرؤيا في الإضاءة الخافتة، وهناك نوع ثالث اكتشفه العلماء حديثًا، وتسمى الخلايا العقدية الحساسة للضوء، وهذه لا علاقة لها بعملية الإبصار، ولكنها تتحسس ضوء الشمس وتتفاعل مع شروقها وغروبها وسطوعها، وتتواصل مباشرة مع مراكز معينة في الدماغ البشري، لتتحكم بما يعرف بالساعة البيولوجية للإنسان، وبنمط ونظام نومه، ولا زالت الأبحاث قائمة حول هذه الخلايا لأنها اكتشفت حديثًا جدًا.

ومنها ما تتحسس ضوء الشمس وتتفاعل مع شروقها وغروبها وسطوعها، وتتواصل مباشرة مع مراكز معينة في الدماغ البشري، لتتحكَّم بما يُعرف بالساعة البيولوجية للإنسان، وبنمط ونظام نومه، ولا زالت الأبحاث قائمةً حول هذه الخلايا لأنها اكتشفت حديثًا جدًا.

فور وقوع الضوء على الشبكية، تقوم الفوتونات التي يحملها شعاع الضوء بالتفاعل مع نوع من الجزيئات يسمى الواحد منها «ريدوبيسن»، فيتغير تركيب هذه الجزيئات، لتقوم بسلسلةٍ من التفاعلات الكيميائية المعقدة، ينتج عنها أن يتم إرسال نبضات كهربائية عبر العصب البصري إلى مقر الإبصار في مؤخرة الدماغ؟ ثم تعود تلك الجزيئات إلى حالتها قبل تفاعلها مع الفوتونات لتستقبل شعاعًا ضوئيًا جديدًا وفوتونات جديدة؟ ثم تقوم بتفاعلات جديدة وترسل نبضات جديدة؟ وأن هذه الدورة من التفاعلات لا تستغرق أكثر من «بيكو ثانية»، وهي وحدة لقياس الزمن تعادل جزءًا من تريليون جزء من الثانية.

وآخر أرقام العين المذهلة التي نذكرها هنا، تتعلق بالعصب البصري، فهذا العصب العجيب الذي ينقل الإبصار من العين لمركز الإبصار في الدماغ، لا يتجاوز قطره ١,٨ مليمتر فقط، ومع ذلك فهو يتألف من حزمة تضم أكثر من مليون ومائتي ألف من الألياف العصبية البصرية؟ (ولنا أن نتخيل ما قطر كل ليف منها؟!).

عود على بدء:

إن أي رقم مما مرَّ معنا في الأسطر السابقة[1] يكفي التفكُّر فيه ليقول المرء: سبحان الخلاق العليم، هذا وإنَّ ما ذكرناه ليس أكثر من نقطة في بحر، أو ذرة رمل في صحراء، فالبحر ينفد قبل أن تنفد كلمات الله، ويكفي أن نعلم أن أي خلية حية مفردة في جسم الإنسان، هي أكثر تعقيدًا من أعظم سفينة فضائية، أو أحدث حاسوب اخترعه الإنسان، ويكفي أن نعلم أنَّ نواة الخلية، التي لا يزيد قطرها عن ٣ ميكرون، تحتوي على معلومات وبرمجيات مخزنة في الحمض النووي، مقدارها ثلاثة مليارات ومائتي حرف، أي إن هذه النواة التي لا تراها العين، تحتوي على معلومات وبرمجيات تملأ ألف مجلد، وكل مجلد يتألف من ألف صفحة، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وما أصدق قول الشاعر مخاطبًا من يعقل من الناس:

يا آيــة الخــلق التي ❊❊ تُذْهِلُ لُبَّ الراشدِ
تــقـــول كـل ذرةٍ ❊❊ فيك لكلّ جاحدِ
سبحان من صوّرني ❊❊ ربِّ العباد الماجدِ

إن من يلحدون ويجحدون، لا يفعلون ذلك لانعدام الدليل، ولكن لأسباب تتعلَّق بهم، هي غشاوات غطَّت قلوبهم وألبابهم فحالت بينهم وبين التفكُّر في خلق الله، منها الكِبْر، ومنها حُبُّ الجاه، ومنها حُبُّ الشهوات، وأمور أخرى ليس هذا مجال تفصيلها، يقول الله تعالى واصفًا هؤلاء: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، ويقول سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

(١) الأرقام التي وردت في المقال مصدرها الكتابان التاليان: - (معجزة الإنسان) للكاتب (مايكل دينتون) The Miracle of Man by Micheal Denton.
- (التوقيع في الخلية) للكاتب (ستيفن ماير) Signature in the Cell by Stephen Meyer.

القصص القرآني: منهج تربوي فريد

أ. محمد أمجد عبد الرزاق بيات (*)

القرآن الكريم كتاب نور وهداية، والأخذ به سبيل للسعادة في الدارين، هداياته متعددة الأساليب والأدوات؛ ومن أكثرها حضورًا وتأثيرًا: قصص الأمم السابقة، وهي تكاد تجمع فوائد الأساليب الأخرى، وتأثيرها ملموس مشهود لدى الكبار والصغار والعلماء والعوام، وهذه المقالة تضيء لنا جانبًا من حِكم القصص القرآني وأهدافه، مع أمثلة تطبيقية وتوجيهات تربوية

مدخل:

لا يخفى ما للقصص في الموروث الإنساني من دور كبير في نقل الخبرة والعبرة في التوجيه والتربية، ذلك لما للقصة من أثر عميق في نفس المتلقي وتكوينه وتشكيل وعيه، ومن المشاهد أن العبرة والموعظة المجردة لا تؤثر في الفرد وتحمله على الانصياع والاستجابة ما لم تقترن بقصة واقعية.

لذلك نجد القرآن الكريم اعتنى بالقصة عناية كبيرة، ونوَّع في سردها وعرضها، وأبدع في أسلوبها، واعتمد على إيراد الموعظة والعبرة في صورة قصة لتكون أبلغ في التأثير وأعظم في التعليم والتذكرة، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]. فقصص القرآن مجال خصب للدعوة والتربية، وفيها العِبَر والعِظات والحِكَم، يستفيد منها المربون، وينتفع منها المعلمون، ويتزود مِن معينها الصالحون(١).

> **اعتنى القرآن الكريم بالقصة عنايةً كبيرة، ونوَّع في سردها وعرضها، وأبدع في أسلوبها، واعتمد على إيراد الموعظة والعبرة في صورة قصَّة لتكون أبلغ في التأثير وأعظم في التعليم والتذكرة**

(*) ماجستير في الفقه، باحث شرعي ومدرس.

(١) ينظر: معالم القصة في القرآن الكريم، لمحمد خير العدوي، ص (٧، ٨).

أهداف القصص القرآني:

يمكن إجمال أهداف القصص القرآني في عملية التربية والإعداد في هدفين رئيسين:

الأول: التغيير الاجتماعي، وإحداث النقلة الكبيرة في المفاهيم والقيم والأخلاق والموازين والمنهج، لتقوم الجماعة المؤمنة بالوظيفة الكبيرة التي سينيطها الله بها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهذا التغيير الجذري العميق يتطلب جهدًا عظيمًا وصبرًا دؤوبًا، ليصل البناء تمامه، ويستحق وعد الله بالتمكين والاستخلاف: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

الثاني: بيان تفاصيل المنهج؛ كيف تعيش الجماعة المؤمنة بهذا الدين، وكيف تطبق المنهج الإلهي في الحياة وكيف تدعو إليه، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

لقد كان للقصص القرآني دور بارز في تنشئة الجماعة المؤمنة وتربيتها وصياغتها فكريًّا وشعوريًّا، وهي أهم عوامل التوجيه والإرشاد في بيان الحق وثباته في القلوب وترسيخ الإيمان وتجذيره في النفوس.

> **ينبغي ألا يغيب عن الدعاة والمربين أن معظم قصص القرآن وردت في القرآن المكي، وكان لها دور بارز في تنشئة الجماعة المؤمنة وتربيتها وصياغتها فكريًّا وشعوريًّا في تلك الفترة من عمر الدعوة، وما لابسها من ظروف وملابسات**

وجدير بالذكر أن معظم هذا القصص ورد في القرآن المكي، ما يوضّح أثر القصة في المنهج الإلهي في تلك المرحلة التي تتضمن عملية البناء الأولى للجماعة المؤمنة في تلك الفترة من عمر الدعوة، وما لابسها من ظروف وملابسات، وهذا ما ينبغي أن يكون حاضرًا في أذهان الدعاة وأهل العلم، وهم يواجهون مثل تلك الظروف، ومقتضيات النشأة المشابهة في بعض الأزمنة والمجتمعات[١].

التوجيهات التربوية من القصص القرآنية:

لعلنا نستذكر -على عجالة- بعض تلك القصص وأبرز التوجيهات التربوية المستفادة منها، ثم نفرد بعض القصص بوقفة خاصة بمشيئة الله.

فقصة بداية الخلق وقصة آدم وإبليس في الجنة ونزولهما للأرض تُذكّر الناس جميعًا بأصل الصراع وغاية الوجود الإنساني، وأثر المعصية، وطبيعة الوجود على هذه الأرض، ثم العودة إلى الله والحساب بعد انتهاء مدة الاختبار، نلحظ هذا التوجيه بتكرار القرآن للقصة في مواضع من القرآن وبسياقات مختلفة لأهمية التذكير المستمر بهذه الحقائق الأساسية للبشر.

كما أن قصة موسى عليه السلام -وهي أكثر القصص ذكرًا وإعادة في القرآن- فيها من المعاني الإيمانية والتربوية والدعوية ما يفوق الوصف، فهي تهم كل داعية، وهي نذير لكل طاغية، وفيها تربية لكل أمة مستضعفة، وبيان لسبيل التمكين، وغيرها من الدروس والعبر والتوجيهات التربوية في كل هذه المجالات.

وقصة طالوت وجالوت، نتعلم منها معنى القيادة ومواصفات القائد، وأهمية السمع والطاعة، والتنظيم للعسكر والجيش الفاتح الذي يحمل العقيدة الربانية.

وفي قصة أصحاب السبت عبرة عظيمة للجماعة المؤمنة، وأهمية القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتربية القلوب على الخوف والخشية ودوام المراقبة لله، وخطورة الاحتيال على الشريعة، وأن العلم وحده لا يُغني شيئًا إذا كانت القلوب خربة والنفوس مريضة!

كما نتعلم من قصة أصحاب الأخدود التضحية في سبيل الله والعقيدة، والثبات العظيم على الحق والمبدأ، مهما كان الخطر والتهديد، وإن كان هو الموت المحتّم، فلا مساومة في العقيدة، ولا خضوع لجبار!

أما قصة الفتية أصحاب الكهف ففيها من المعاني التربوية أن الدين والإيمان أغلى ما يملك

(١) ينظر: القصص القرآني: عبر ودروس، لمرشد الحيالي.

المرء في هذه الحياة، وأهم ما ينبغي أن يحافظ عليه، لأجله يهجُرُ العشيرة والوطن والأصحاب والقرابة، ويبذل في سبيله الغالي والنفيس، يحتملُ ألم الفراق والغربة، ولا يتراجع ولا يضعف.

من قصة نوح عليه السلام نتعلم صبر الداعية العظيم وعدم استسلامه وإن طال الزمن، كما نتعلم أهمية التنويع في أساليب الدعوة، ومع ذلك فإن أمر القلوب بيد الله سبحانه، والاستجابة والإيمان ليست لأحد إنما لله، فلا يأس ولا قنوط.

> **من كنوز قصة الفتية أصحاب الكهف: أن الدين والإيمان أغلى ما يملك المرء في هذه الحياة، وأهم ما ينبغي أن يحافظ عليه، لأجله يهجُرُ العشيرة والوطن والأصحاب والقرابة، ويبذل في سبيله الغالي والنفيس، يحتملُ ألم الفراق والغربة، ولا يتراجع ولا يضعف**

وقفات تربوية مع قصص قرآنية:

والآن نقف مع بعض القصص القرآني نركّز فيها على بعض المواقف التربوية المختارة بشي من التفصيل.

قصة النبيّ المَلِك سليمان عليه السلام

ذُكر نبي الله سليمان عليه السلام في القرآن سبع عشرة مرة[1]. وجمع الله له بين النبوة والملك. وأثنى عليه بالعلم والفهم والحكمة؛ وهذه بعض الوقفات التربوية المستفادة من خلال قصته[2]:

اللفتة الأولى: من أعظم مهمات القائد: حسن تدبير شؤون الدولة:

وفي قصة سليمان يظهر حُسن القيام بهذه الأمانة في أمور أبرزها: التنظيم والضبط وتوزيع المهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، ففيه دليل على أن سليمان عليه السلام قد قسَّم المهام والوظائف على جنوده، فكلٌّ له غايته، وكل له وظيفته الموكل بها، هو دليل اهتمام كبير وتحمل للأمانة عظيم للمحافظة على الملك واستمرار قوته وهيبته.

كما يظهر حُسن القيام بهذه الأمانة من خلال المتابعة الدقيقة والمحاسبة والمساءلة، مع العدل والحزم، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]، فلابد للقائد وولي الأمر حتى يستقر ملكه ويستقيم أمره من متابعة الانضباط والطاعة، والتفقد للجنود والرعية، والحزم عند وجود أي خلل، وإلا صار الأمر فوضى. ومع هذا فسليمان لم يكن ليُعاقب ظلمًا، دون أن يسمع حجة الهدهد الغائب، ومن ثم تبرز سمة النبي والملك العادل: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٢١]، أي حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذة عنه.

اللفتة الثانية: في أهم أخلاقيات القيادة:

كالتواضع، ودوام التوبة والاستغفار، والاعتراف بالفضل لله وشكره، يظهر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وكذلك في قوله لما رأى عرش بلقيس مستقرًا أمامه: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، فالقائد والزعيم والمسؤول ينبغي أن يتحلّى بخُلُق التواضع ولا يغره المنصب، فيتذكر فضل الله عليه، ليشكره ويرد الفضل لصاحب الفضل والتوفيق.

ويظهر دوام الرجوع لله مع كثرة الاستغفار في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، فالسلطة مظنة الانشغال بالملك وسياسة الرعية، فلا بد لصاحب السلطة والمسؤولية من دوام ذكر الله ليبقي الصلة بربه قائمة، فلا يغفل عنه ولا يدع أعباء السلطة تشغله عن ربه، فهو إنما يقوم بالملك ويُعان عليه بمعية الله وتوفيقه له.

قصة لقمان الحكيم

لقد سميت سورة لقمان في القرآن الكريم إعلاءً لشأنه، وتنويهًا بوصيته لابنه، وما فيها من حديث مؤثر بليغ في التربية والتوجيه والنصح والتحذير، وذلك في بضع آيات، من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ

(١) وردت قصة سليمان -عليه السلام- في سورة النمل من (الآية ١٥ إلى الآية ٤٤) وفي سورة الأنبياء (الآيات ٧٩ و٨١و٨٢) وفي سورة سبأ (الآيات ١٢-١٤)، وفي سورة ص (الآية ٣٠ إلى الآية ٤٠).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن، سورة النمل (١٥-٤٤)، سورة ص (٣٠-٤٠)، الفوائد التربوية من قصة سليمان عليه السلام، لعبدالعزيز الرويلي.

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٢-١٩].

فقد احتوت هذه الآيات على خلاصة ما ينبغي أن يقوم عليه كل من يبغي السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، والوقوف مع هذه الوصايا واللفتات يحتمل مجلدًا، ولكننا نشير لثلاثةِ توجيهات تربوية منها:

اللفتة الأولى: عِظَم حق الوالدين وبرهما:

لا حقَّ أوجب تأديةً بعد حقِّ الله وشكره من حق الوالدين اللذين كانا سببًا في وجود الولد في هذه الحياة؛ ولهذا يقرن الله تعالى بين حقِّه وحقهما في آيات من القرآن الكريم كهذه الآية.

اللفتة الثانية: مراقبة الله على الدوام:

وهي الأصل في تزكية النفس وعمارة القلب، فمن راقب الله في كل أحواله استقام أمره وصلحت علانيته وسريرته، فلا يقترب من ذنب، ولا يقارف خطيئة، فإذا غفل قليلاً سارع إلى التوبة والأوبة فصقل قلبه وأعاد صلته بربه.

اللفتة الثالثة: التواضع لله:

فالمتواضع محبوبٌ من الله والناس، خلاف المتكبر فهو ممقوتٌ في الأرض والسماء، والتواضع خُلقٌ كريم، يؤدي إلى لين الجانب، ولُطف الخطاب، وحُسن المعاملة.

أما المتكبِّر فإنه يَستصغر الخلق، ويردُّ الحق، وما أخوف ما جاء في أهل الكبر من الوعيد، قال ﷺ: (تحاجَّت النار والجنة، فقالت النار: أُوثرتُ بالمتكبِّرين والمتجبِّرين..) الحديث[١].

> **من توجيهات لقمان: أنَّ المتواضعَ محبوبٌ من الله والناس، بخلاف المتكبِّر فهو ممقوتٌ في الأرض والسماء، والتواضع خُلقٌ كريم، يؤدي إلى لين الجانب، ولُطف الخطاب، وحُسن المعاملة، أما المتكبِّر فإنه يَستصغر الخلق، ويردُّ الحق**

قصة ابنَي آدم

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.. إلى قوله: ﴿قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

لم يثبت في اسمي ابني آدم شيء، والحديث الصحيح الوارد فيها قول رسول الله ﷺ: (لا تُقتل نفسٌ ظُلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها، لأنه كان أول من سَنَّ القتل)[٢].

اللفتات التربوية والعبر المستفادة من القصة[٣]:

اللفتة الأولى: تحريم الظلم، وصيانة النفس البشرية:

لقد كرَّم الله النفس الإنسانية وحذرنا من المساس بهذه النفس فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. «فأين البشرية الآن من هذه التعاليم الربانية؟! بل أين المسلمون الآن منها؟! إن العالم الآن يضج بالفتن والحروب واستخدام الأسلحة الفتاكة، والتفاخر بامتلاك أسلحة الدمار الشامل، فما أحوج أمتنا للرجوع إلى تعاليم الرسالات! فالكون اليوم كله يهفو إلى تعاليم السماء ويشتاق إلى تعاليم الإسلام»[٤].

اللفتة الثانية: الصراع بين الحق والباطل باقٍ إلى قيام الساعة:

تظهر قصة ابني آدم نموذجين للبشر، نموذج النفس الشريرة التي تعتدي بلا مبرِّر، ونموذج النفس الطيبة الخيرة التي لا تعرف الشر ولا تُضمر السوء، يتصرف كل نموذج وفق طبيعته، وما دام أن النفوس الشريرة موجودة، فلا بد من قانون رادع وشريعة عادلة ترد البغي وتقف في وجه الظالم وتمنعه من ظلمه، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥) و (٧٣٢١)، ومسلم (١٦٧٧).
(٣) ينظر: في ظلال القرآن، سورة المائدة (٢٧-٣١).
(٤) التربية في القصص القرآني، لحسام العيسوي، ص (٤٦).

كيف نستفيد من القصص القرآني؟

١ القراءة مع التدبر ودعاء الله بالفتح والفهم

٢ استخلاص الهدف من القصَّة

٣ جمع مواضع القصة في القرآن الكريم

٤ الرجوع إلى ما ثبت في السنة النبوية

٥ الاستعانة بكتب التفسير الموثوقة

٦ المناقشة والتفكير الناقد

قصة نبي الله صالح عليه السلام

وهي قصة كغيرها من القصص التي ساقها القرآن الكريم بين الأنبياء والمرسلين وأقوامهم وما كان بينهم وكيف انتهى أمر المكذبين المعاندين، وكيف أنجى الله المؤمنين المصدقين، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ... إلى قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩](١).

وهذه القصة، وفيها من العبر والدروس الكثير، وهذه بعض الوقفات التربوية مع القصة:

اللفتة الأولى: التنكُّر للحق وواجب الدعاة:

في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]، لقد كان صالح عليه السلام ذا مكانة في قومه واحترام، قبل أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده والإيمان به، فلما دعاهم إلى عبادة الله الواحد وترك ما يعبدون من دونه، سقط من أعينهم واحتقروه!

وفي هذا درسٌ بليغٌ لكل داعيةٍ للحق يُخالفُ ما عليه قومُه من اعتقادٍ وعاداتٍ وأخلاق، فلربما كان فيهم ذو وجاهةٍ ومكانةٍ يثقون برأيه ويُعجبون بعقله، ما دام أنه لا ينهاهم ولا ينصحهم فيما هم واقعون فيه، فإذا واجههم وأمرهم ونهاهم فالغالب أنهم سينقلبون عليه وسيتنكَّرون لكل ما كان، فلا ينبغي أن يصده ذلك عن المضي في طريقه، وله أسوة حسنة بالأنبياء والمرسلين، وهذا نبينا محمدٌ ﷺ كانوا يدعونه في مكة: الصادق الأمين، فلما قام يدعو إلى الله تعالى قالوا: ساحر كذاب؛ فقص الله عليه ما جرى لمن كان قبله من الأنبياء ليثبت فؤاده؛ قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣، ٣٤].

(١) وردت قصة نبي الله صالح وقومه ثمود في مواضع من القرآن، في سورة الأعراف: (٧٣-٧٩)، وفي سورة الحجر: (٨٠ - ٨٤)، وفي سورة الشعراء: (١٤١ - ١٥٩). وهود: (٦١-٦٨) . والقمر: (٢٣-٣١) . والشمس: (١١-١٥).

اللفتة الثانية: العبرة بموافقة الحق لا بالكثرة:

فقد حكى الله قول الملأ من ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٣، ٢٤].

وفي قولهم: ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾ استنكارٌ منهم كيف يكون الحق مع شخص واحد، والجميع يُخالفه فيه! فهذا لا يعقل في نظرهم، وهذا أحد أسباب ترك الحق واتباع الباطل؛ لأن الحق أصحابه قليل ولكثرة أهل الباطل، وهو داء في الناس من قديم، والعبرة التربوية أن الحق يُعرف بنفسه وبرهانه ودليله، وليس مقياسه الكثرة والقلة فهذا ميزان لا يستقيم، وقال ﷺ: (بَدَأَ الإسلامُ غريبًا، وسيعودُ كما بدأ غريبًا، فَطُوبى لِلغُرباءِ)[١]، قالوا: ومَنِ الغرباءُ يا رسول الله؟ قال: (أُناسٌ صالِحونَ في أُناسِ سُوءٍ كثيرٍ، مَن يَعصيهِم أكثرُ ممن يُطيعُهم)[٢].

> **استنكرت ثمود أن يكون الحق مع شخص واحد، والجميع يُخالفه فيه! فهذا لا يُعقل في نظرهم، وهذا أحد أسباب ترك الحق واتباع الباطل، وهو داءٌ في الناس من قديم، والعبرة التربوية: أن الحق يُعرف بنفسه وبرهانه ودليله، وليس مقياسه الكثرة والقلة**

اللفتة الثالثة: الراضي بالفعل كالفاعل في أحكام الآخرة:

ذكر سبحانه أن الذي عقر الناقة شخص واحد، فقال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، وقال في موضع آخر: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقال: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] هكذا بصيغة الجمع، وقال النبي ﷺ: (انْبَعَثَ لها رجلٌ عزيزٌ عارِمٌ، منيعٌ في رَهْطِهِ، مثلُ أبي زَمْعَةَ)[٣].

لقد أضاف الله الفعل إليهم جميعًا: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، فعمَّهم الله بالعذاب، ولم ينجُ منهم إلا مَن لم يرض وهم المؤمنون؛ وهذا يدل على أن الراضي كالفاعل في حكم الله سبحانه وميزانه، روى أبو داود مرفوعًا: (إذا عُمِلَتِ الخطيئةُ في الأرضِ كانَ مَن شَهِدَها فَكَرِهها -وقال مرة: أنكرها- كمَن غابَ عنها، ومن غابَ عنها ورضِيَها كانَ كمَن شَهِدها)[٤].

قال ابن رجب: «من شهد الخطيئة فكرهها في قلبه كان كمن لم يشهدها، إذا عجز عن إنكارها بلسانه ويده، ومَن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها وقدر على إنكارها ولم يُنكرها؛ لأن الرضا بالخطايا من أقبح المحرمات، وهو فرضٌ على كل مسلم لا يسقط عن أحد في كل حال من الأحوال»[٥].

كيف نستفيد من القصص القرآني:

هذه بعض التنبيهات والخطوات التي تعين على تحصيل أكبر قدر من الفائدة عند قراءة القصة في القرآن الكريم، وقد علمنا سابقًا أن للقصة في القرآن مكانة بارزة وجاء سياقها لأهداف وغايات متعددة، وحتى يمكن الاستفادة من القصة القرآنية ينبغي مراعاة بعض الأمور:

١. القراءة بتدبر وحضور قلب وعقل مع دعاء الله بالفتح والفهم:

وتأمل قول الله تعالى وهو يقول في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]. فلك أن تتخيل كم في هذه القصة من الفوائد والدروس والعبر والتوجيه والإرشاد في مجالات شتى، كل ذلك يمكن استخلاصه إذا قرأنا هذه السورة بتدبر وحضور قلب وإعمال العقل.

٢. تحديد الهدف من القصة:

وذلك بمعرفة موضعها، والقدر الذي حُكي منها، وأسلوب الحكاية، ووجو السورة وأهدافها، تأمل معي قول الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤-٥٨]، في هذه الوقفة القصيرة في سورة النمل، تُبرز همَّ قوم

(١) رواه مسلم (١٤٥).
(٢) هذه إحدى روايات الحديث، وهي في مسند أحمد، برقم (٦٦٥٠)، وقال محققو المسند: حسنٌ لغيره.
(٣) رواه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥).
(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٥١)، وحسَّنه الألباني.
(٥) جامع العلوم والحكم، ص (٢٨١).

لوط عليه السلام بإخراجه من قريتهم لأنه يأمرهم بترك فاحشة الشذوذ المنافية للفطرة، ونجاته ومن آمن معه وإهلاك القوم المكذبين.

وسورة النمل سورة مكية، ومعلوم أن موضوعات السور المكية الرئيسي هو بيان العقيدة في الله وتصحيحها، والإيمان بالآخرة، وحقيقة الوحي وإثبات الرسالة، وإقامة الحجة على الناس وبيان عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين، ويأتي القصص لتثبيت هذه المعاني، لذلك يذكر طرفًا من القصة باختصار وهو يركز على نهايتها بإهلاك المكذبين، لأنه الهدف الذي يخدم سياق السورة ومحورها.

> **أبرز موضوعات السور المكية بيان العقيدة في الله وتصحيحها، والإيمان بالآخرة، وحقيقة الوحي وإثبات الرسالة، وإقامة الحجة على الناس وبيان عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين، ويأتي القصص لتثبيت هذه المعاني، ويركز على نهايتها بإهلاك المكذبين**

٣. جمع مواضع القصة في القرآن الكريم:

ومثال ذلك قصة نبي الله لوط عليه السلام، فقد وردت في مواضع من القرآن في سور عدة[١]، وطريقة القرآن أن يستشهد بالمقطع الذي يذكره من القصة بما يناسب سياق السورة واتجاهها العام وموضوعها البارز، فجمع مواطن القصة في القرآن يعطي تصورًا أكبر حولها، ومعرفة محور كل سورة واتجاهها العام، فيُفهم الشاهد المذكور من القصة في ضوء السورة واتجاهها.

٤. الرجوع إلى ما ثبت في سنة النبي ﷺ:

ففيها زيادة إيضاح وشرح وبيان، كما في البخاري من ذكر لبعض تفاصيل ما جرى بين نبي الله موسى عليه السلام والخضر، وما ورد في بيان حال أصحاب السبت اليهود ومسخهم، وغير ذلك.

٥. الاستعانة بكتب التفسير الموثوقة:

وذلك لفهم مجريات القصة والأحداث والشخصيات الواردة، كتفسير الطبري، وابن كثير، والبغوي، والقرطبي، وبعض المؤلفات المعاصرة التي اهتمت بتحرير الروايات والمنقولات الإسرائيلية والدخيلة التي لا تثبت أو تتعارض مع ما ثبت في شريعتنا.

٦. المناقشة والتفكير الناقد:

وذلك عن طريق معرفة المحور الذي تدور حوله، ومعرفة الشخصيات والزمان والمكان الذي حدثت فيه، وربط القصة وشخصياتها وأفكارها بالواقع، واستخلاص المعاني والدروس، يقول ابن القيم: «أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته -تحت القرآن- وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خَلَوا.. ولعَمْرُ الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شرٌّ منهم، أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك»[٢].

(١) وردت قصة لوط عليه السلام في سورة: الأعراف، وهود، والحجر، والأنبياء، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والذاريات، والنجم، والقمر.
(٢) مدارج السالكين (٣٤٣/١).

قضايا معاصرة

الدين والأخلاق في السياق الغربي الحديث: (علاقة وصل أم فصل؟)

د. كريمة دوز (*)

محاسن الدين الإسلامي كثيرة، ومن أهمها اكتمال بنيانه، ووضوح غاياته، وتحقيقه للحاجات النفسية والاجتماعية، لكنَّ استغراق المسلمين في تفاصيل حياتهم اليومية قد يحجب عنهم حقيقة تميز الإسلام عن الأديان والثقافات الأخرى، وشيئًا من المقارنة مع ما وصل إليه البشر من الأفكار والنظريات المعاصرة يوضح حجم التيه الذي يعيشه من يبتعد عن معين النور الصافي.

مدخل:

من ينظر في تاريخ الفكر الغربي يجده متضاربًا في نظره لمعيارية الأخلاق، ومدى أصالة الحس الأخلاقي في التاريخ الإنساني وفطريته في النفس البشرية، وقد زادت أزمة الرؤية الغربية لفلسفة الأخلاق بعد طغيان العلم التجريبي وإحلال النظرة المادية الطبيعانية مكان الرؤية الدينية، فصار الحديث عن «أخلاق مطلقة ثابتة» محل نقاش وجدال واسع، ليطال هذا الخلاف صلة الأخلاق بالدين بين من يرى في الأخلاق منظومة قائمة بذاتها، وبين من يرى تبعيتها للدين، ولعل هذا التصور المتأزم لعلاقة الأخلاق بالدين كان له أسبابه العقدية والتاريخية، ليكون الإشكال المطروح: هل يمكن أن تسري مقولة الفصل الغربية على سائر المنظومات الدينية والعقدية؟ أم أن مقولة الفصل هذه موصولة بما عاشه الفكر الغربي من صراعات مع الدين المسيحي.

هذه الورقة ستحاول عرض الآراء القائلة بالفصل مع بيان أصل الصلة بين الأخلاق والدين.

> **الأخلاق التي كان الغربي يستقيها من الكتاب المقدَّس، أضحت موضع محاكمةٍ ونقدٍ في عصر النهضة، فنظرة القرون الوسطى للإنسان مخلوقًا ضعيفًا مليئًا بالخطايا، سينبذها فلاسفة التنوير لتكون مهمتهم الكبرى في تخليص الإنسان من هذا التصور بمحاولة الفصل بين الدين والأخلاق**

(*) دكتوراه في العقيدة والفكر ومقارنة الأديان من جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس - المغرب.

الهيومانية الغربية ومقولة الفصل:

لعل إحدى الصدمات الكبرى بين العقل في العصر الوسيط والعقل في العصر الحديث، هو إيمان الأول بأن العالم يمثل نظامًا أخلاقيًا، في حين آمن الثاني بأنه يخلو من مثل هذا النظام[١]، وهي سمة بدأت معالمها تتحدد بدخول الفكر الغربي مرحلة النهضة، ولعل بلوغ الفكر الغربي هذا المبلغ من القطيعة مع الديني في تصوره للأخلاق هو نتاج تقديس العقل.

فالناظر في الفترة التاريخية التي يطلق عليها «الفترة الحديثة» يلمس فيها ذلك النظر العقلي المختلف في جوانب عديدة عن نظرة الفترة الوسيطة، ومن هذه الجوانب جانبان لهما الأهمية القصوى: تضاؤل السلطة الكنسية، وتزايد سلطة العلم التجريبي. فثقافة الأزمنة الحديثة أقرب إلى الثقافة العلمانية منها إلى الثقافة الدينية[٢]، إنها ثقافة تغييب الإلهي مقابل إعلاء الروح المادية، وإحلالها مكانة المرجعية في بناء التصور الحديث للعالم عمومًا. فالحداثة جاءت لتجاوز ما كان سائدًا في الموروث، وذلك بتحكيم سلطة العقل والعلم مقابل فكرة الله[٣]، فأيُّ شيءٍ يُشمُّ منه رائحةُ الدين يصبح موضعَ شكٍّ ولا يُمكن أن يكون علميًا[٤].

فالأخلاق التي كان الغربي يستقيها من الكتاب المقدَّس، أضحت موضع محاكمةٍ ونقدٍ في عصر النهضة، فنظرة القرون الوسطى للإنسان مخلوقًا ضعيفًا مليئًا بالخطايا، سينبذها فلاسفة التنوير لتكون مهمتهم الكبرى في تخليص الإنسان من هذا التصور بمحاولة الفصل بين الدين والأخلاق.

ذهب علماء التنوير في القرن ١٨م إلى القول بضرورة فصل الأخلاق عن الدين، وقد كان لنظرتهم هذه أسبابها التاريخية والموضوعية المتمثلة في تخويل السلطة المطلقة للكنيسة ورجالاتها التي لم تقف عند الوساطة الروحية وبيع صكوك الغفران، بل توسَّع طغيانها ليشمل الفكر والعلم، فكانت الكنيسة هي التي تحدِّد أغراض العلم وتسن نظم البحث[٥]، وكل رؤيةٍ جديدةٍ للكون تُعتبر مخالفة لما سطر في الكتاب المقدس تُرفض ويُتهم أصحابها بالهرطقة[٦]، بل إن الشواهد التاريخية تحيلنا إلى ما مارسته محاكم التفتيش من حرق وتعذيب لجملة من العلماء الذين لم يرضخوا لخرافات الكنيسة، ولم ترضهم تفسيرات الكهنة.

فهذه الأحداث المتشابكة، والصراعات المتأجِّجة بين الكنيسة والعلم، أدَّت إلى ميلادٍ جديدٍ لنهضةٍ فكرية، وزيادةٍ في «سخط الناس على ما لديهم من عقائد عتيقة، فأعلنت الحرب على كل نوع من أنواع السلطات، وطولب بحرية الفكر وأصبح الحق في نظر الناس ليس ما اعتبر حقًا منذ قرون، ولا ما قال عليه فلان، وإنما الحق ما بُرهن عليه واقتنعت بكونه حقًا»[٧]، ورويدًا رويدًا بدأ انسلاخ الفكر الغربي من النظرة الدينية السائدة عن الكون والإنسان، حتى أعلن مارسليو فاسيو Marsilio Piofici عميد فلاسفة المذهب الإنساني في القرن ١٣م، أن الإنسان لم يعد خليفة الله في الأرض فحسب، وإنما شريكه في العلم والإبداع[٨]، تعالى الله عن ذلك.

> **ذهب علماء التنوير في القرن ١٨م إلى القول بضرورة فصل الأخلاق عن الدين، وذلك بسبب السلطة المطلقة للكنيسة ورجالاتها التي توسَّع طغيانها ليشمل الفكر والعلم، وكانت كلُّ رؤيةٍ جديدةٍ للكون تعتبر مخالَفةً تُرفض ويُتهم أصحابها بالهرطقة وتنالهم عقوبات الإعدام والتصفية الجسدية**

(١) ينظر: الدين والعقل الحديث، ولتر ستيس، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، ص (١٤١).
(٢) تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند راسل (٧/٣)، بتصرف.
(٣) الحداثة وما بعد الحداثة، مجموعة من الباحثين، ص (٣٥).
(٤) الدين والعقل الحديث، ولتر ستيس، ص (١٠٣).
(٥) ينظر: قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمينوزكي نجيب محمود، ص (٤٨).
(٦) شنت الكنيسة حملة شعواء همجية ضد كل من قال بكروية الأرض، أحرقت من أحرقت وعذبت من عذبت، وهددت بتعذيب كل من لم يكف عن هذه الهرطقة التي تقول بكروية الأرض وأنها ليست مركز الكون بحجة أن التوراة قالت إن الأرض مستوية وإنها هي مركز الكون، والإنسان مركز الوجود، فأحرقت العالم الإيطالي جردانو برنو حيًا، وسجنت العالم الإيطالي غاليليو. (مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ص (٥٠)، بتصرف).
(٧) قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص (٤٨).
(٨) ثلاث رسائل في الإلحاد والعقل والإيمان، عبد الله الشهري، ص (٤٤).

فكان من مؤاخذات التنويريين على المسيحية تعرُّضُها لآفتين اثنتين أدت إلى تأسيس أخلاقٍ مستقل عن الدين[١] وتتمثل هاتان الآفتان في:

١. الخرافة واللاعقلانية:

حيث «طغت بحسبهم الصفة الخرافية على المعتقدات المسيحية، فكادت أن تعيد الوثنية إلى الكنيسة، بل عدها أحدهم وهو «ديدرو» أكثر إهانة للألوهية من الإلحاد نفسه وأحصوا من هذه المعتقدات: «الخطيئة الأصلية»[٢] و«التثليث» و«التجسيد» و«ألوهية المسيح» و«خلاص البشر» و«التوجه إلى الأيقونات» و«المعجزات والأسرار»[٣].

بالإضافة إلى الخرافة التي حظي بها جزء كبير من العقائد المسيحية حسب التنويرين كان لِآفة أخرى التأثير البالغ على نظريتهم في العلاقة بين الدين والأخلاق وهي:

٢. الصراعات الدينية:

كان لاختلاف المسيحيين حول جملة من المعتقدات الأثر الواضح في نشوب الحرب بين الفرق المختلفة حيث «استولت على النفوس ألوان من التعصب لهذه المعتقدات، توهمًا لأفضليتها على غيرها، وأذكت بين الطوائف المسيحية فتنة عقدية كبرى أدخلتها في حروب طاحنة دامت سنين طويلة على فترات مختلفة وقد دعا هذا التعصب «التنويريين» إلى ممارسة شديد نقدهم لهذه المعتقدات التاريخية، بل صريح قدحهم في معتنقيها حتى اشتهر عن فولتير، قوله «اسحقوا الخسيس» قاصدًا بذلك التشنيع بالمسيحية التاريخية أو بالأخص الكاثوليكية، وقد ضمنوا هذا النقد والقدح مصنفات مستقلة نشر بعضها بأسماء مستعارة أو مجهولة، وأثار بعضها سخط الكنيسة وإدانتها»[٤].

فهذه المعتقدات الخرافية حسب التنويريين والتي أدخلت أوروبا في سنوات مديدة من الحروب والاقتتال جعلت من فصل الأخلاق عن الدين ضرورة ملحة، وفي هذا الصدد يقول فرنسوا جوليان: «فلم تبق للأخلاق حاجة لسند الميتافيزيقا وهو سند مشبوه طالما أن نتائج الميتافيزيقا لم تعد مقنعة»[٥].

وبناء على هاتين الآفتين اندفع إنسانيو عصر النهضة إلى وضع صيغ متعدِّدةٍ للفصل بين الدين والأخلاق[٦]، حيث كان انتقادهم «لتأسيس الأخلاق دينيًا مستمدة من فكرة الثواب والعقاب في الآخرة، وتحديدًا من التفسيرات الأخلاقية للدين»[٧]، ومن الأمثلة على ذلك أن الدين في نظر الناقد يعزز الأخلاق لدى ضعاف النفوس الذين لا يرون العمل الأخلاقي أمرًا يستحق أن يقوم به الإنسان بحد ذاته، وهذا يعني من زاوية نظرهم أن الدين بتلويحه بالثواب والعقاب يحجب إمكانية التطور الكامل لقوى الإنسان الأخلاقية الحرة[٨].

لكن هذا النقد عند التنويريين لا يُلامس حقيقة الصلة بين الله والإنسان، القائمة على التخيير ثم الحساب، فالأصل في صلة الله بالإنسان أنه خيّره، إن شاء ائتمر بأمره، وانتهى بنهيه، وإن شاء لم يأتمر بأمره ولم ينته بنهيه، ولم يقف تخييره له عند هذا الحد، بل إن شاء أقر بوجوده وعمل بحسب إقراره، وإن شاء أنكره، وله أن يأتي تصرفاته على وفق إنكاره»[٩].

ومن هنا كانت حجَّة التنويريين بأنَّ تأسيسَ الأخلاق على الدين قد يُعزِّز الأخلاق عند ضعاف النفوس أمرًا واهيًا؛ لأن الله جعل للإنسان حرية الاختيار والتصرف طبقًا لقرارة نفسه، وما استقر عليه فكره وضميره الإنساني.

وما يمكن استنتاجه من هذا العرض السريع لنظرية فصل الدين عن الأخلاق أن قاعدتها

(١) بؤس الدهرانية (النقد الانتمائي لفصل الدين عن الأخلاق)، طه عبد الرحمان، ص (٣٣).
(٢) تعلن المسيحية أنه بسبب معصية آدم بعدم طاعته لوصية الله بأن لا يأكل من شجرة المعرفة، قد أخطأ، وتوارث خطيئته جميع ذريته، فجميع الجنس البشري مولودون خطاة. ينظر: الغفران بين الإسلام والمسيحية، إبراهيم خليل أحمد، ص (٩٣-٩٤).
(٣) بؤس الدهرانية (النقد الانتمائي لفصل الدين عن الأخلاق)، طه عبد الرحمان، ص (٣٤).
(٤) المرجع السابق نفسه.
(٥) جدل في الأخلاق، فرانسوا جوليان. ترجمة: خديجة الكسوري بن حسين وآخران، ص (٢١).
(٦) ينظر: بؤس الدهرانية (النقد الانتمائي لفصل الدين عن الأخلاق)، طه عبد الرحمان، ص (١٢).
(٧) الدين والعلمانية في سياقهما التاريخي، عزمي بشارة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص (١٢٠).
(٨) المرجع السابق، ص (١٢٠-١٢١).
(٩) بؤس الدهرانية (النقد الانتمائي لفصل الدين عن الأخلاق)، طه عبد الرحمان، ص (٧٦).

الأساسية هي المرحلة المظلمة التي عرفتها أوروبا في ظل تغطرس الكنيسة وما نتج عن ذلك من إراقة الدماء خلال سنوات متطاولة في الزمن، فأسست هذه الفترة لقطيعة الغربيين مع الدين الذي لم يفصل عن الأخلاق فقط، وإنما فصل عن الحياة بوجه عام ليبقى حبيس الكنائس ودور العبادة.

> **كان من تبعات فصل الأخلاق عن الدين التمهيد لتأسيس أخلاق نسبية، فما كان خطأ عندك أو في ثقافتك قد يكون صوابًا عند الآخر أو ثقافة أخرى**

الفكر الغربي ومقولة تبعية الأخلاق للدين:

كان من تبعات فصل الأخلاق عن الدين التمهيد لتأسيس أخلاق نسبية، فما كان خطأ عندك أو في ثقافتك قد يكون صوابًا عند الآخر أو ثقافة أخرى.

يقول ولتر ستيس: «الميزة الكبرى للنظرة الدينية هي تقديم أساس متين للأخلاق وسط الطبيعة المتغيرة للعالم، وليس أساسًا مهتزًا وسط رمال الطبيعة البشرية المتحركة، فالقيم والقوانين الأخلاقية هي بالضرورة موضوعية، وتكون القيمة موضوعية إذا كانت مستقلة عن أية أفكار إنسانية أو مشاعر أو آراء للبشر»[١].

لكن إذا كان هذا الاتجاه يرى أن فصل الدين عن الأخلاق ضرورة «فهناك اتجاه آخر من الأخلاقيين يرى تبعية الأخلاق للدين[٢] وقد بنوا ذلك على أصلين اثنين وهما (الإيمان بالإله) و(إرادة الإله)»[٣].

وقد ظهر هذا الاتجاه عندما ازدوجت الفلسفة الأخلاقية الموروثة عن اليونان في الغرب «بتعاليم الدين المسيحي، حيث اندرج فيها مبدأ الإيمان بالإله وتقرر التسليم بأنه لا أخلاق بغير إيمان، علمًا بأن الإيمان هو عبارة عن التصديق اليقيني بالوجود الغيبي للإله عن طريق القلب، فمادام الغرض من الأخلاق هو رسم طريق الحياة الطيبة للإنسان، فلا شيء يبلغ مبلغ الدين في الحرص على تحقيق هذا الغرض في عاجل الإنسان وآجله معًا، وما ذلك إلا لكون الدين ينبني على الإيمان بإله قادر على كل شيء يعين المؤمن على الوصول إلى هذه الحياة الطيبة، متفضلة عليه بوجوده وشفقته»[٤].

حسب هذا التصور فإن ما يجعل الأخلاق تابعة للدين هو شمولية هذا الأخير لكل المعاني الأخلاقية وحرصه على تحقيق سعادة الإنسانية في الحال والمآل، فإذا كان علم الأخلاق تنظيرًا لما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني، فإن الدين يعزز في نفس معتنقيه كل القيم التي من شأنها أن تصلح الناس ليس ظاهرًا فقط بالتزام بعض القيم الأخلاقية وإنما من الباطن تبعًا لمبدأ «الإيمان بالإله» الذي يقر القلب الموقن به فتنطلق جوارح الإنسان معلنة الانقياد للإله الذي يعينه على سلوك طريق الخير والحياة الطيبة.

وبما أن الإيمان بالإله هو في نفس الوقت إيمان بصفاته كانت إرادته وهي الصفة الباعثة على الأفعال الأخلاقية أولى هذه الصفات الإلهية التي تجعل الإله مريدًا بإرادة كاملة، فتكون إرادته في أفعال مخلوقاته من البشر إنما هي الأمر بخيرها، فيلزمه اتباعه وكذا النهي عن شرها، فيلزمه اجتنابه[٥].

بناء على هذين الأصلين المتلازمين وهما «الإيمان بالإله» و«إرادة الإله»[٦]، كانت الأخلاق تابعة للدين، فمن آمن بالإله يجب أن يمتثل لإرادته ومشيئته التي تحقق الخير للبشرية، فلا سبيل لفصل الأخلاق عن الدين، فحسب هذا الاتجاه الأخلاق لا يمكن أن تثمر في نفس الفرد بدون إيمان.

(١) الدين والعقل الحديث، ولتر ستيس، ص (٣٤٢).

(٢) يعتبر أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) من الفلاسفة المسيحيين الذين قالوا بتبعية الأخلاق للدين، حيث ربط المشكلة الأخلاقية بالله، فكما أن الله مصدر الحقيقة، كذلك هو مصدر الأخلاق، وعلى هذا يقول: «إن الحياة السعيدة في نعيم الله، ومن أجل الله، ولا شيء غير هذه الحياة يمكن أن يسمى سعيدًا، فالسعادة والحقيقة شيئان مترادفان»، وهكذا كانت معظم آرائه وأفكاره في السلوك الإنساني تستند على النصوص اللاهوتية، فتعتمد على الأوامر والنواهي والتقارير الدينية، مثل افعل ولا تفعل. ينظر: فلسفة العصور الوسطى، عبد الرحمان بدوي، ص (٣٣).

(٣) سؤال الأخلاق (مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية)، طه عبد الرحمان، ص (٣١).

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) المرجع السابق، ص (٣٣).

(٦) معلوم أن الفلسفة الأخلاقية المبنية على الإيمان بالإله وتعتبر هذا الإيمان أصلًا من أصولها، وتبني عليه جملة من الفضائل الإنسانية، لابد أن تعتبر كذلك صفات هذا الإله الواجبة في حقه، ولا سيما تلك التي تكون باعثة على الأفعال الخُلقية، وأولى هذه الصفات الإلهية هي كونه مريدًا بإرادة كاملة، وإرادته في أفعال مخلوقاته من البشر إنما هي الأمر بخيرها، فيلزم إتيانه وكذا النهي عن شرها، فيلزم اجتنابه. ينظر: سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمان، ص (٣٣).

كيف تتكامل الأخلاق مع الدين؟

١

الدين: معرفة الله وتوقيره وهو الفضيلة النظرية

٢

الخلق: حمل النفس على فعل الخير، وضبطها عن الهوى، وهو الفضيلة العملية

الدين هو المنظم لعلاقة الفرد بربه من ناحية، والناموس الذي نستقي منه التشريعات المنظمة لعلاقة الفرد بالجماعة من ناحية أخرى

القانون الأخلاقي الكامل هو الذي يتناول حياة الإنسان في نفسه، وفي مختلف علائقه مع الخلق، ومع الربِّ

الدين والأخلاق في أصلهما حقيقتان منفصلتا النزعة والموضوع، لكنهما يلتقيان في نهايتهما

حقيقة الصلة بين الأخلاق والدين:

لكننا في علاقة الأخلاق بالدين سنسير سيرًا آخر يوضح الرؤى ويزيل الضبابية التي ارتبطت بطبيعة تلك الصلة، حيث سنعالج الموضوع من زاويتين اثنتين:

زاوية نظرية تجريدية: ترى إمكان استقلال الدين عن الأخلاق من جهة وترى إمكان تداخلهما وتكاملهما من ناحية أخرى.

زاوية تاريخية: تكشف لنا عن حقيقة الصلة بينهما في الواقع.

> **الدين والأخلاق في أصلهما حقيقتان منفصلتا النزعة والموضوع، لكنهما يلتقيان في نهايتهما فينظر كل منهما إلى موضوع الآخر من وجهة نظره الخاصة، كمثل شجرتين متجاورتين تمتد فروعهما، وتتعانق أغصانهما، حتى تظلل إحداهما الأخرى**
>
> د. محمد عبد الله دراز

الزاوية التجريدية:

فمن الناحية التجريدية: «إذا نظرنا إلى (الدين) من حيث هو معرفة (الحق) الأعلى وتوقيره، وإلى (الخُلق) من حيث هو قوة النزوع إلى فعل (الخير) وضبط النفس عن الهوى، كان أمامنا حقيقتان مستقلتان، يمكن تصور إحداهما دون الأخرى، فتخص أولاهما بالفضيلة النظرية، والأخرى بالفضيلة العملية»[١].

لكن وبالرغم من ذلك تتكامل الأخلاق مع الدين، «فلما كانت الفضيلة العملية يمكن أن تتناول حياة الإنسان في نفسه ومختلف علائقه مع الخلق ومع الرب كان القانون الأخلاقي الكامل هو الذي يرسم طريق المعاملة الإلهية، كما يرسم المعاملة الإنسانية»[٢].

فالأخلاق إذن بإمكانها أن تقف بجانب الفضيلة النظرية في رسم طريق المعاملة الإلهية، إذ القانون الأخلاقي الكامل هو الذي يتناول حياة الإنسان في نفسه، وفي مختلف علائقه مع الخلق، ومع الربِّ فيكون موضوعها قريبًا من موضوع

(١) الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، ص (٩٣).
(٢) المرجع السابق نفسه.

الدين في تنظيم هذه العلاقة وتعزيزها في نفس الفرد والجماعة.

وكذلك الأمر بالنسبة للفضيلة النظرية، «لما كانت الفكرة الدينية هي التي لا تجعل من الألوهية مبدأ تدبير الأفعال فحسب، بل مصدر حكم وتشريع في الوقت نفسه، كان القانون الديني الكامل هو الذي لا يقف عند وصف الحقائق العليا النظرية، وإغراء النفس بحبها وتقديسها بل يمتد إلى وجوه النشاط المختلفة في الحياة العملية، فيضع لها المنهاج السوي الذي يجب أن يسير عليه الفرد والمجتمع»[١].

ومن هنا يكون الدين هو المنظم لعلاقة الفرد بربه من ناحية والناموس الذي نستقي منه التشريعات المنظمة لعلاقة الفرد بالجماعة من ناحية أخرى، فهو يجمع بين الفضيلة النظرية من حيث معرفة الحق وتوقيره والفضيلة العملية من حيث وضع التشريعات المنظمة للسلوك الإنساني، لتكون الأخلاق جزءًا من هذه المنظومة الدينية الشاملة.

وخلاصة القول في هذا الجانب النظري التجريدي أن «الدين والأخلاق في أصلهما حقيقتان منفصلتا النزعة والموضوع، لكنهما يلتقيان في نهايتهما فينظر كل منهما إلى موضوع الآخر من وجهة نظره الخاصة، كمثل شجرتين متجاورتين تمتد فروعهما، وتتعانق أغصانهما، حتى تظلل إحداهما الأخرى»[٢].

الزاوية التاريخية:

أما من الناحية التاريخية: «فإننا لا نرى الصلة بين الدين والأخلاق تبلغ دائمًا هذا الحد من التساند والتعانق، لا في مبدأ نشأتهما في نفس الفرد ولا في دور تكونهما وتركزهما في قوانين وقواعد مقررة في المجتمع»[٣].

فالشعور الأخلاقي في عهد الطفولة يكون أقدم وأرسخ في نفس الطفل من الشعور الديني، لذلك نراه يبدأ في سن مبكرة جدًا استحسان بعض الأفعال، واستنكار بعضها، والاستحياء من بعض آخر[٤].

أما في المجتمع فإن امتزاج القوانين الدينية والقوانين الأخلاقية نراه لا يجري على سنن واحد في العصور والبيئات المختلفة، فكثيرًا ما ظهرت في التاريخ نظم أخلاقية لا تعرض لواجب الآلهة قط، ولا تستقي تشريعاتها للفضائل الأخلاقية من وحي الدين، بل من وحي الضمير أو سلطان المجتمع، أو غير ذلك، كما ظهرت في التاريخ مذاهب دينية لا تعتني هذه العناية بالناحية العملية الاجتماعية، بل كثيرًا ما تجعل المتدين ينطوي على نفسه، متخذًا مثله الأعلى في العُزلة والصمت والتأمل.

لكن رغم هذا التباين الذي قد يظهر في البداية «يبقى الفكر الأخلاقي من أقدم الأفكار الإنسانية، ولا يسبقه سوى الفكر الديني الذي هو قديم قدم الإنسان نفسه، وقد التحم الفكران معًا خلال التاريخ، ففي تاريخ علم الأخلاق، لم يوجد عمليًا مفكر جاد لم يكن له موقف من الدين، إما عن طريق استعارة الضرورة الدينية كمبادئ للأخلاق، أو عن طريق محاولة إثبات العكس، ولذلك يمكن القول بأن تاريخ علم الأخلاق بأكمله قصة متصلة لتشابك الفكر الديني والأخلاقي»[٥].

الأخلاق والدين يجب أن يمضيا جنبًا إلى جنب في النفس البشرية لتحقيق السعادة في الدارين معًا، والفصل بين الدين والأخلاق عند بعض المفكرين الغربيين جاء نتيجة الخرافة المرتبطة بالعقائد المسيحية، بالإضافة إلى الصراعات الدينية التي أسالت الدماء الأوروبية سنوات مديدة

ومن هنا فالدين والأخلاق فكران عريقان في القدم، يتداخلان من حيث الموضوع فيكمل بعضهما البعض، فالدين في جانبه العملي لا يخلو من مبادئ وتشريعات ترسم طريق الصلاح للبشرية، والأخلاق كذلك لا غنى عنها في بناء العلاقة بين الإله والفرد وتعزيز الصلة بينهما.

(١) المرجع السابق نفسه.
(٢) المرجع السابق، ص (٩٤).
(٣) المرجع السابق نفسه.
(٤) الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، ص (٦٤)، بتصرف.
(٥) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة: محمد يوسف عدس، ص (١٩٧).

ولعل عزت علي بيجوفيتش قد أكَّد على ضرورة الجمع بين العنصرين اللذين ظلا في اعتقاد كثير من الناس منفصلين، وبين ذلك بمثال يجلي تصوره في مفهوم العلاقة بين الدين والأخلاق استنادًا لما ورد في القرآن الكريم من آيات تدل على هذه اللحمة بين الدين والأخلاق حيث قال: «اقرأ هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إنها تتكرر بصيغتها أو معناها في القرآن الكريم أكثر من خمسين مرة، كأنما تؤكد لنا ضرورة توحيد أمرين اعتاد الناس على الفصل بينهما. إن هذه الآية تعبر عن الفرق بين الدين (الإيمان) وبين الأخلاق (العمل بالصالحات) كما تأمر في الوقت نفسه بضرورة أن يسير الاثنان معًا»[1].

فالأخلاق والدين يجب أن يمضيا جنبًا إلى جنب في النفس البشرية لتحقيق السعادة في الدارين معًا، فالقول بضرورة الفصل بين الدين والأخلاق عند ثلة من المفكرين الغربيين جاء كما رأينا نتيجة الخرافة المرتبطة بالعقائد المسيحية التي تضاربت مع العقل والفكر الغربي، بالإضافة إلى الصراعات الدينية التي أسالت الدماء الأوروبية سنوات مديدة.

وعليه يكون الفصل بين الدين والأخلاق ليس حتمية تاريخية تجري على كل الأمم والشعوب وإنما هو ضرورة ارتبطت بالتجربة الأوروبية مع الكنيسة، التي أدخلت الغربيين في قطيعة مع الدين.

فقد تكون بعض المجتمعات البشرية مؤسسة على نظم أخلاقية، لكن يبقى الدين في جزئه العملي مرتبطًا بالأخلاق وتبقى الأخلاق في رسمها لطريقة المعاملة الإلهية كما رأينا مرتبطة بالدين، ولذلك فالإنسان حسب تعبير باسكال[2] يبقى عاجزًا عن معرفة الخير الحقيقي والعدل بمعزل عن الإيمان.

فالدين والأخلاق إذن متداخلان في الموضوع، متكاملان في الغاية، فكل منهما يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه الإنسان سواء في علاقاته الإنسانية أو في علاقته مع الله.

(١) المرجع السابق، ص (١٩٨).

(٢) ينظر: خواطر، بليز باسكال، ترجمة: إدوار البستاني، ص (١٣٥).

التنمية الدعوية.. نحو آفاق متجدِّدة

أ. عبد الرزاق ميزة نازي (*)

حريٌّ بمن أراد أن يرتقي بأي عملٍ أن يقتفي أثر أساتذته وأن يوسِّع جمهوره، وأن يُطوِّر من وسائله وأدواته. والدعوة إلى الله أولى ما يعتنى بتطويره وتنميته، خصوصًا في هذا العصر الذي تلاطمت فيه أمواج الباطل ودهمت كل بيت، فصار لزامًا على دعاة الإسلام أن يولوا هذا الجانب أهميةً كبرى

مدخل:

الدعوة إلى الله وظيفة الأنبياء وورثتهم من العلماء والدعاة، فهي أم الأعمال؛ بها تحيا النفوس، وتسعد الأسر والمجتمعات، وتصلح البشرية، وتنمو الحضارة، وتجتمع الكلمة، ويرتقي الناس بإيمانهم وسلوكهم وأخلاقهم، وقد أوضح القرآن الكريم وبيَّنت السنة النبوية الشريفة منزلة الدعوة إلى الله، فقد جعل الله لأصحابها شرفًا عظيمًا، ومقامًا رفيعًا، وإمامة للناس في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وبين النبي ﷺ أن أجر الدعاة ومثوبتهم مستمرة دائمة، فقال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا)[١].

وبالرغم من كون الدعوة عملاً يمارسه كل فرد في المجتمع المسلم، كبيرًا كان أو صغيرًا أو رجلاً أو امرأة، لكن الطبيعة الحية للمجتمع المسلم طورت من الأداء الدعوي المجتمعي، وأضافت للدعوة مفاهيم متقدمة يمكن استحضارها والبناء عليها، وتحسين واقع الدعوة الإسلامية المعاصر، ومن هذه المفاهيم: مفهوم «التنمية الدعوية» التي كان

(*) ماجستير في الفقه وأصوله، مدير مركز تاج لتعليم القرآن الكريم في الريحانية.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

لها دور بارز في الحضارة الإسلامية، فما حاجة الأمة لها اليوم؟ وكيف نصل بها إلى آفاق تطبيقية متقدمة؟

الطبيعة الحية للمجتمع المسلم طوَّرت من الأداء الدعوي المجتمعي، وأضافت للدعوة مفاهيمَ متقدِّمة يمكن استحضارها والبناء عليها، وتحسين واقع الدعوة الإسلامية المعاصر

مفهوم التنمية الدعوية:

يمكن القول إن التنمية الدعوية هي:

عملية تطويرية تهدف إلى الارتقاء بالعملية الدعوية إلى مستويات أعلى بما في ذلك الدعاة والمحتوى الدعوي والمدعوين، والوصول إلى مراتب أفضل في الكم والكيف من مختلف النواحي الإيمانية، والسلوكية، والأخلاقية، والفكرية؛ من أجل تحقيق الغايات العليا التي خلق من أجلها الإنسان، وهي عمارة الأرض وفق المنهج الرباني، وتتم هذه العملية من خلال التخطيط وفق أسس وأساليب متجددة ومستمرة، ضمن الأطر العامة للشريعة الإسلامية.

التنمية الدعوية في النصوص الشرعية:

السيرة النبوية حافلة بالتنمية الدعوية، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

* **أولاً:** عن ابن عباس ﷺ قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة»[1].

وجه الدلالة: ربط التنمية بالعلم؛ لأنه المفتاح الذي يساهم في الارتقاء، وهو المرتكز في الدعوة إلى الله، والكتابة والقراءة هي أولى أساسيات العلم كما هو معلوم، وهي متعدية الأثر فالمتعلم سيعمد إلى تعليم غيره خصوصًا مع توافر نصوص الحث على التعلم وأداء العلم؛ لذلك حرص النبي ﷺ على تعليم أولاد الأنصار الكتابة حتى كثر المتعلمون بينهم، ووصل عدد كتاب الوحي إلى اثنين وأربعين رجلاً، وبعدها انتشرت الكتابة بين فئات المجتمع حتى جاء النص على الكتابة في توثيق الدَّين في القرآن الكريم.

* **ثانيًا:** عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن أصبح منكم اليوم صائمًا؟) قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: (فمن تَبِعَ منكم اليوم جنازةً؟) قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: (فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟) قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: (فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟) قال أبو بكر ﷺ: أنا، فقال رسول الله ﷺ: (ما اجتمعن في امرئٍ إلا دخل الجنة)[2].

وجه الدلالة: نجد في هذا الحديث تنمية عمل الخير بتنوعه والترغيب به؛ لقوله ﷺ (ما اجتمعن في امرئٍ إلا دخل الجنة)، والأثر المتعدي لعمل الخير معلومٌ مشهود، فمن تلقى معروفًا يوشك أن يهديه لغيره، ومن واساه الرحماء في مصيبته سيجد في نفسه توقًا لتخفيف أحزان المكلومين، وهكذا حتى إنك تجد في المجتمع المسلم أشكالاً من الترابط والتراحم ما لا تجده في أي أمة من الأمم.

* **ثالثًا:** عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله قال: (من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)[3].

وجه الدلالة: تدرج العبد وارتقاؤه في مراتب الإيمان من خلال التقرب إلى الله تعالى بأداء فرائضه، واجتناب محارمه، ثم بفعل النوافل والمستحبات، وترك المكروهات؛ هو تنمية لشخص الداعية وصقل لنفسه حتى يصل لمرتبة الولاية الرفيعة؛ فالعبادة سبيل لمقاومة النزعات والشهوات، وتمنح النفس الطمأنينة والإرادة والعزيمة، فلا يبقى معوقات أمام الإنسان لينطلق بالدعوة إلى الله وتنميتها بنفس مطمئنة راضية بما سيصيبها.

والأمثلة كثيرة يصعب حصرها.

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٦)، وابن سعد في «الطبقات» (٢٢/٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٠٢٨).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

والسؤال من أين تبدأ هذه التنمية، وما هي مرتكزاتها؟

تبدأ من تنمية الجانب الشخصي للداعية، وتمتد للمدعوين، وما يوجه لهم، والأدوات والوسائل المستخدمة في دعوتهم.

تبدأ التنمية الدعوية من شخصية الداعية؛ لأنَّ من لا يملك الشيء لا يستطيع أن يعطيه غيره، فتبدأ التنمية من الداخل خلال تنمية الإيمان، والأخلاق والمواهب والأفكار، فيصبح قوة علمية وعملية فتقوى دعوته، ويسير بها نحو النجاح

أولًا/ التنمية الشخصية للداعية:

نقطة البداية في التنمية الدعوية هي شخصية الداعية؛ لأن من لا يملك الشيء لا يستطيع أن يعطي غيره، فتبدأ التنمية بالداعية من الداخل من خلال تنمية إيمانه، وأخلاقه ومواهبه وأفكاره، فيصبح قوة علمية وعملية يستخدمها في الدعوة، ويسير بها نحو النجاح، وهذا داخل في إتقان العمل الذي يحبه الله.

وتكون تنمية الجانب الشخصي للداعية بالآتي:

الإيمان طريق التنمية والارتقاء:

لا بد من استقرار العقيدة في نفس الداعية كي يبقى القلب ثابتًا مرابطًا على ثغور الدعوة إلى الله، وقد اعتنى القرآن الكريم بتنمية هذا الجانب في كل المناسبات، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

القراءة والتعلم المستمر:

القراءة مفتاح المعرفة والعلم، وهي إحدى وسائله الذي لا يتحقق إلا بها، وسبيل لاكتساب المهارات وتطبيقها[١]، لذلك كان للعلم في الإسلام مكانة رفيعة، ومنزلة كريمة، فكانت أول كلمة نزلت، من أول آية تليت، قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، حيث فتحت آفاق المعرفة، وأبواب العلم، وقد عمل النبي ﷺ على نشر العلم والمعرفة في مجتمعه، قال زيد بن ثابت: قال لي رسول الله ﷺ: (تحسن السريانية؟ إنها تأتيني كتب) قال: قلت: لا. قال: (فتعلمها) فتعلمتها في سبعة عشر يومًا[٢].

تنمية العلم بالعمل والتزكية:

وردت التزكية في القرآن الكريم بمعان متعددة، وتعني بالمجمل التخلية والتحلية، التخلية تكون من الرذائل، والتحلية تتحقق من خلال العمل بالطاعات والقربات والفضائل، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

تنمية المهارات الشخصية:

وهي مهارات التعامل مع الآخرين، فهي من الصفات بالغة الأهمية بالنسبة للداعية ومن أهمها: التخطيط وإدارة الذات، وفن الإقناع، واتخاذ القرار، وحل المشكلات، وفن الحوار والاستماع، والتركيز والتوازن، والتغير، وفن الاتصال والتحفيز، وإدارة الأولويات، وفن القيادة الفعالة وغيرها.

عندما أرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة داعيًا إلى الله تعالى استقبله أسعد بن زرارة، فأقبل إليهما أسيد بن حضير مغضبًا -قبل إسلامه وكان سيدًا في قومه- ومعه حربته، فقال أسعد لمصعب: هذا سيد قومه، فاصدق الله فيه، فوقف عليهما أسيد قائلاً: ما جاء بكما إلينا، تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة! وقال أسيد لأسعد ابن عمه: أتيتنا في دارنا بهذا الغريب الطريد ليدعو ضعفاءنا إلى الباطل؟ فعندما انتهى من كلامه، وفرَّغ ما في جعبته من الغضب، قال له مصعب: أوَتجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلتَه، وإن كرهتَه كففتُ عنك ما تكره. فكلمه مصعب وقرأ عليه القرآن. فقال أسيد: ما أحسن هذا وأجمله! فأسلم. فأقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه كذلك وهو سيد المدينة إلى مصعب مغضبًا أشد من غضب أسيد فشتمه ولم يرد عليه مصعب، فعندما انتهى من تفريغ غضبه، قرأ عليه مصعب القرآن فأسلم

(١) أهمية القراءة وفوائدها، لعبد الله آل جار الله، ص (٥-٦) بتصرف.
(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٨٧)، وابن حبان (٧١٣٦).

سعد، فما أمست المدينة إلا وقد أسلمت لإسلام سعد بن معاذ ﷺ[١].

> **التنمية القيادية لدى الداعية تكون بالتحمُّل الدائم للمسؤوليات التي تناط به ويشارك بها، وبحسن التعامل مع الأزمات، واستثمار الفرص المتاحة، وتنمية مهاراته وخاصة العلمية، وتشجيع المدعوين وتحفيزهم علميًا وعمليًا**

التنمية الوجدانية مع الله:

في الإنسان قوة غير ظاهرة للعيان، وهي الإرادة والمشاعر والعواطف، وقد توجه الإنسان إلى عمل الخيرات وترك المنكرات، أو العكس؛ لذلك نجد الاهتمام الكبير من النبي ﷺ بتنمية الجانب الوجداني في قلوب ونفوس أصحابه وتهذيبها، وهم خير الدعاة إلى الله تعالى ومن الأمثلة على ذلك:

١. الإخلاص:

بأن يقصد المسلم بأعماله جميعها وجه الله، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [سورة الزمر: ٢]، فالإنسان مجبول على حب الظهور، فأتى الإسلام ليوجه هذا الطبع نحو الله تبارك وتعالى، والتجرد له والاهتمام بقلبه، تأمل في قول رسول الله ﷺ: (إنَّ الله لا ينظرُ إلى أجسامِكُم، ولا إلى صُوَرِكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالكم)[٢].

فالداعية أحوج ما يكون إلى تهيئة القلب للدعوة إلى الحق حتى يستقيم أمرها على أحسن حال[٣].

٢. التوبة والاستغفار:

وهما جانبان مهمان في تنمية روح اللجوء لله تعالى والافتقار إليه، والشعور بالندم عند الخطأ في نفسية المسلم، عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (والله إني لأَستغفِرُ الله وأتوبُ إليه في اليومِ أكثرَ مِن سبعينَ مرةً)[٤].

وتنمية جانب التوبة والاستغفار في وجدان الداعية يفتح عليه بابًا من العلم، ويكرمه الله بأفضال ونعم عديدة، ويمنَحُه فوائد جليلة، ويُغدِق عليه بذلك ثمرات كثيرة، وسير الدعاة مليئة بهذا الجانب على مر العصور والأزمان[٥].

تنمية الجانب الإبداعي للداعية:

ينبغي للداعية ألا يسير على وتيرة واحدة في دعوته وتعامله، بل وينمي جانب الإبداع باستمرار ويكون عن طريق الآتي:

أولاً: استنهاض مهارات التفكير العليا في الداعية، ومن أهمها مهارات العصف الذهني الذي يهدف إلى توليد قائمة من الأفكار التي يمكن أن تؤدي إلى حل المشكلات التي تواجه الداعية في طريقه.

عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟) فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: (هي النخلة)[٦]. وقد تجسدت الحكمة النبوية بتنمية طريقة العصف الذهني، وتوسيع مدارك أصحابه الدعاة الذين انطلقوا في أرجاء المعمورة؛ لأن الإنسان متى حصل على المعلومة بعد عناء وفكر وإعمال عقل رسخت في ذهنه.

ثانيًا: توليد الأفكار باستمرار، فأحيانًا بفكرة واحدة يعز الله دينه، بفكرة واحدة ربما يتحقق النصر[٧]، قام سلمان ﷺ إلى النبي ﷺ وأشار إليه بحفر الخندق فنفع الله بفكرته واقتراحه الإسلام والمسلمين.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٤٣٨/٢)، الرحيق المختوم، للمباركفوري، ص (١٣٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).
(٣) ينظر: التنمية البشرية في السنة النبوية، لرائد أبو رية، مجلة كلية الدراسات الإسلامية للبنات بكفر الشيخ، العدد الثاني، المجلد الرابع لعام ٢٠١٨م، ص (٢٣٢).
(٤) أخرجه البخاري (٦٣٠٧).
(٥) ينظر: التنمية البشرية في السنة النبوية، ص (٢٣٨).
(٦) أخرجه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).
(٧) ينظر: التنمية البشرية في السنة النبوية، ص (٢٥٤).

تنمية الجانب القيادي للداعية:

الداعية قائد مؤثر في الآخرين، يتبعه الناس، وهو أسوة يقتدى به[1].

وتنمية هذا الجانب يكون بالتحمُّل الدائم لكافة المسؤوليات التي يتولاها ويشارك بها[2]، وبحسن التعامل مع الأزمات، واستثمار الفرص المتاحة، وتنمية مهاراته وخاصة العلمية، وتشجيع المدعوين، وتحفيزهم على الالتزام بالدين عقيدة ومعاملة وأخلاقًا.

ومن أهم وسائل تنمية هذا الجانب المشاورة؛ لما لها من أثر في تنمية قدرات القائد على اتخاذ القرار؛ لذلك كان النبي ﷺ حريصًا على مشاورة أصحابه في جميع الأمور.

البعد عن التعصب:

وهو التفكير دائمًا بصفة أحادية مع إلغاء الرأي الآخر، ورفض تقبله ونقاشه، والإسلام دين وسطية وتوازن في تناول الأمور وعند التعامل مع البشر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالتعصب يكون فقط للحق لا لهوى أو مصلحة.

> **حتى تلبي الأدوات والوسائل الدعوية الحاجات المتطورة في كل عصر تحتاج إلى قاعدة ثابتة من الموارد المالية والاقتصادية المتجدِّدة التي تنميها وتطورها، وأهم هذه الموارد: الأوقاف**

ثانيًا/ تنمية الأدوات والوسائل الدعوية:

ما يستعين به الداعية على تبليغ الدعوة إلى الله تعالى على نحو نافع ومثمر يسمى وسيلة أو أداة، ومعلوم أن القضايا الدعوية متجددة، والوسائل كذلك متجددة تواكب مستجدات العصر بحسب الزمان والمكان وحال الناس، فمن لم يتقدم يتقادم، ومن لم يتجدد يتبدد.

وقد استخدم الدعاة على مر الزمان وسائل كثيرة وكل وسيلة لها دور مهم في نشر الدعوة ومنها:

وسائل قديمة:

كالخطبة والدروس والمحاضرات والندوات والحوار والكتابة والوعظ والتذكير، ثم تطورت هذه الوسائل، ولم تعد مقتصرة على السابقة.

وسائل حديثة:

هذا النوع له تأثير عميق في حياة الناس على مختلف أجناسهم ومستوياتهم، كالصحيفة والمجلة والكتاب والمدرسة، والإذاعة والشاشة، ودور العرض العامة، والرسائل الكتابية أو المحادثات، والمسرح والحوار والمهرجان والشبكة ومواقع التواصل الاجتماعي واليوتيوب وغرف الحوار المباشر.

وهذه الأدوات والوسائل جسر هام للوصول إلى الناس بأسرع وقت وأقل تكلفة إذا أحسن الداعية استعمالها.

ولكي تلبي الأدوات والوسائل الدعوية الحاجات المتطورة في كل عصر تحتاج إلى قاعدة ثابتة من الموارد المالية والاقتصادية المتجددة التي تنميها وتطورها، وأهم هذه الموارد: الأوقاف، وتاريخ الحضارة الإسلامية اعتمد على الوقف لتنمية هذه الوسائل، وبداية الوقف كان من عهد النبي ﷺ، وتبعه الصحابة الكرام في ذلك، وكان للوقف نتائج جلية في النهوض بالدعوة واستمرارها والحفاظ على وسائلها، فقد استفاد الناس منذ القديم ومازالوا إلى الآن من الأوقاف، كالمساجد ودور العلم والمكتبات التي فتحت أبوابها في وجه طُلاب العلم، وكذلك المدارس والمشاريع الوقفية، وهذا ما يميز الوقف كمورد عن غيره من الموارد وهو الديمومة والاستمرار على مر العصور.

ثالثًا/ تنمية المدعوين:

ويكون بتنمية حالة قبول الخطاب الدعوي والتسليم للأوامر والنواهي الشرعية للمدعوين، وتتجلى هذه التنمية بالآتي:

المشاركة الوجدانية:

مشاركة المدعوين أحوالهم كالتهنئة في الأفراح وعيادة المريض وإجابة الدعوة والسؤال عن أحوالهم ومواساتهم فيما يصيبهم، قال ﷺ:

(١) ينظر: التنمية البشرية في السنة النبوية، ص (٢٦٠).
(٢) ينظر: الرسول القائد، لمحمود شيت خطاب، ص (٤٣٨-٤٣٩) بتصرف.

من وسائل الداعية في تنمية حالة قبول الخطاب الدعوي

(حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس)[1]. بالمشاركة سترتفع سهام الداعية لدى المدعوين ويلتفون حوله ويقبلون دعوته.

إظهار المحبة لهم:

فبالحب يحصل الاتباع، فيصغي المدعو وتدخل المحبة إلى قلبه فيعظم كلام الداعية ويقبله وينمو في قلبه، وهذا كان حال الصحابة ﷺ، ففي مفاوضات صلح الحديبية كان عروة بن مسعود أحد الموفدين من قبل قريش إلى النبي ﷺ، فلما رجع إليهم قال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد -ﷺ- محمدًا[2].

مخالطة الناس في مجتمعه والتعرف على أحوالهم:

كلما كان الداعية قريبًا من الناس كانت استجابتهم لدعوته أكبر، واجتماعهم حوله أكثر، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال ﷺ: (المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)[3].

المساعدة في قضاء الحاجات:

بالمعونة أو بالشفاعة القولية أو الفعلية والتيسير عليهم، فيملك الداعية نفوس المدعوين ويأسر قلوبهم بمعروفه، قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَكَانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٠) ومسلم (٢١٦٢).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢).

تأمين خدمات المجتمع:

من خلال التكافل الاجتماعي كمشاريع إقامة المدارس والتعليم، والمستوصفات ورعاية ضعفاء المسلمين كما فعل النبي ﷺ عندما قدم المدينة أول ما بنى مسجدًا.

نشر الرحمة:

بينهم والتعاطف والتعاون، فالداعية لا يكون إلا رحيمًا بعباد الله، شفوقًا عليهم، محبًّا لهم، يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

قال عز وجل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

من أجل قبول المدعوين لخطاب الداعية لا بد من اختيار الخطاب الدعوي المناسب لهم، وذلك لاختلاف مستوياتهم، فمنهم المتعلم والجاهل والكبير والصغير، وقد يحتاج الداعي إلى أسلوب الرد على الشبهات، أو أسلوب التربية والإعداد، أو أسلوب الترغيب والترهيب، وغير ذلك

رابعًا/ تنمية الخطاب الدعوي:

وهو البيان الذي يوجَّه للناس كافة لدعوتهم إلى الإسلام، والتأثير فيهم تأثيرًا يحملهم على الالتزام به؛ ومن أجل وصول الخطاب إلى القبول في نفوس المدعوين لا بد من اختيار الخطاب الدعوي المناسب لهم، وذلك لاختلاف مستوياتهم، فمنهم الأطباء وأصحاب العلم والمحامون والمهندسون والعوام، فأحيانًا يحتاج الداعي إلى أسلوب الرد على الشبهات والمفتريات، وأسلوب التربية والإعداد، وأسلوب الترغيب والترهيب، وغير ذلك، وهذا يسهل على الداعي إذا حدد له طبقة من المدعوين قبل أن يبدأ العمل الدعوي، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والبصيرة بمعناها العام هي العلم والفهم.

وتنمية الخطاب الدعوي ترتكز على الآتي:

تنمية خطاب الانتماء والولاء:

ليشعر الجميع بالانتماء والولاء عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

تنمية خطاب أدب الاختلاف:

انطلاقًا من مبدأ إقرار حقِّ كلِّ صاحب مذهب، أو رأي معتبر، في تبنِّيه والدعوة إليه –وفق الأصول العلمية والعملية– مع رعاية رحم الأخوّة، وحفظ الحرمات، ومراعاة أن الحق يُقبل من كل من تكلم به، ولا يحل التشنيع على المخالف، بسبب مسائل تحتمل وجوهًا في الفهم[١].

تقديم الإسلام منهجًا مرتبطًا بالزمان والمكان والإنسان:

موصولاً بالواقع، مشروحًا بلغة العصر، جامعًا بين النقل الصحيح والعقل الصريح، ثابتًا في الكليات والأصول، مَرِنًا في الجزئيات والفروع، محافظًا في الأهداف، متطورًا في الوسائل، منتفعًا بكل قديم صالح، مرحبًا بكل جديد نافع[٢].

تنمية الخطاب المتضمن للقيم العليا:

التي تدفع للعمل والحركة، والتجرّد، والتضحية، والإخلاص، وإبعادهم عن السلبية والكسل والخمول والفتور، وبإمكان هذا الخطاب بعث قيم الإسلام وغاياته ومقاصده بعد غلبة الجانب المادي في مفاصل حياة الفرد والمجتمع، وذلك عن طريق طرح وسائل وأساليب وطرق تزكية النفس؛ من الدعاء وصلاة التهجد والأذكار وتلاوة القرآن وصوم النوافل، والاطّلاع على أمراض القلوب، وكيفية معالجتها، والتخلص منها.

تنمية قضية الثواب والعقاب:

وتعريف الناس بربهم، وما أعده لهم من ثواب وعقاب في اليوم الآخر.

تنمية خطاب الشورى:

وتعزيز المشاركة الواسعة للجميع في صناعة القرار، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

(١) ينظر: نحو خطاب إسلامي مرتبط بالأصل ومتصل بالعصر، لعصام أحمد البشير، ص (٢٨- ٢٩).
(٢) ينظر: المرجع السابق، ص (٦٧- ٦٩).

تنمية خطاب توحيد الكلمة:

وحشد طاقاتهم، وتوجيهها باتجاه خدمة القضايا الكبرى والغايات المشتركة، فالإسلام مبنيٌّ على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، واجتناب أدوات الشقاق وأسباب الخلاف والتنافر، وأهمها الهوى والعصبيات والمناصب والنفوذ، فالأصل في الدين أنه دعوى للتوحد لا للفرقة.

وأخيرًا الصبر على تحمل الأذى:

فطريق الدعوة إلى الله ليس مفروشًا بالرياحين، ولابد فيه من الابتلاء، لذلك كان من أوائل ما نزل على النبي ﷺ الأمر بالصبر مقرونًا بالدعوة إلى الله، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧]، فلا بد للداعي إلى الله من التحلي بالصبر، فالرسل دعوا وصبروا فكانت العاقبة لهم وللمؤمنين، سئل ﷺ: من أشد الناس بلاءً؟ قال: (الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل)[1].

> **طريق الدعوة إلى الله ليس مفروشًا بالرياحين، ولا بد فيه من الابتلاء، لذلك كان من أوائل ما نزل على النبي ﷺ الأمر بالصبر مقرونًا بالدعوة إلى الله**

تطبيقات واقعية للتنمية الدعوية في واقعنا اليوم:

التطبيقات الواقعية للتنمية الدعوية كثيرة، ولكن بين يديك عدة نماذج منها:

مدارس تعليم القرآن الكريم:

ووجه التنمية فيها تربية جيل من الأبناء على هدي القرآن الكريم، وهم بدورهم سينقلون هذا الهدي إلى الأجيال التالية التي ستتابع نفس المهمة فيمن بعدهم.

الأوقاف التي توقف على النفقات الدعوية:

فالوقف هبة يهبها المتبرع مرة واحدة، لكنها تمد العمل الدعوي إلى يوم القيامة مادام الوقف قائمًا.

معاهد ومراكز تخريج الدعاة والمصلحين:

فكل داعية منهم قد يفتح الله على يديه في دعوة ملايين الناس، وقد يتخرج على يد كل منهم دعاة آخرون.

ختامًا:

لكل عمل آثار، ومن الآثار المرجوة إذا أخذ الدعاة بالتنمية الدعوية:

- الحفاظ على المكتسبات والنتائج عبر الزمن.
- سبيل لاستمرار الدين وثباته في المجتمعات في مواجهة العدوان المستمر على كيانه.
- التأثير الدائم على المدعوين بما يصلحهم في الحال، ويسعدهم في المآل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].
- البركة والنجاح المستمر؛ لأن فيه إتقانًا للعمل الذي يحبه الله، وإذا أحب الله عمل عبدٍ بارك فيه.

(١) أخرجه ابن حبان (٢٩٠٠).

قراءة في كتاب «تكوين الملكة اللغوية» للبشير عصام المراكشي

محمود كريم (*)

اللغة العربية والعناية بها جزءٌ من هوية المسلم في شرق الأرض وغربها، وبدونها يتعذّر على المسلم فهم القرآن الكريم، وفهم أحاديث النبي ﷺ. لكنَّ مكانتها تراجعت في النفوس بعد تراجُع المسلمين وتأخُّرهم عن طليعة الركب، فاتَّجه حرص أبناء المسلمين إلى تعلُّم لغات الدول المسيطرة، فكيف نعيد للغة العربية قوَّتها ومكانتها في النفوس؟ وكيف نقدمها للأجيال الناشئة؟

وصف الكتاب:

يقع الكتاب في ٢٢٨ صفحة، وهو صادر عن مركز نماء للبحوث والدراسات في بيروت لبنان، والنسخة المعتمدة في القراءة من الطبعة الأولى الصادرة عام ٢٠١٦م.

تعريف بالمؤلف:

د. البشير عصام المراكشي، كاتب وباحث من المغرب، تلقى العلم على جماعة من علماء المغرب، وحصل على الماجستير والدكتوراه في العلوم الشرعية، له إسهامات بحثية شرعية، وهو المشرف على قسم اللغة العربية في «ملتقى أهل الحديث»، كما أنّه حاصل على شهادة مهندس الدولة في الاتصالات.

تعريف بالكتاب وأقسامه:

يهدف الكتاب إلى تأطير مساقٍ عمليٍّ لاستعادة دور اللغة العربية في مجتمعاتنا وسيرورتنا الحضارية، حيث يرصد مَواطن العَطَب التي أصابت محاضن تعليم اللغة العربية، ثم يرسم مسارًا علميًا وعمليًا لتمكين ملكة اللغة عبر عدة مستويات.

(*) خرّيج جامعة حلب، كاتب وباحث.

يتكون الكتاب من مدخل تمهيدي وبابين رئيسيين، يندرج تحتها عدة فصول ومباحث.

يتحدث المؤلف في المدخل التمهيدي عن مرتبة اللغة العربية من الدين، ومفهوم الملكة الفكرية.

والباب الأول: يعرض فيه عقبات تكوين الملكة اللغوية، وهي في مجملها تتمحور حول البعد عن اللسان الأول، وعيوب تدريس اللغة العربية اليوم.

أما الباب الثاني: فيطرح المؤلف فيه خطة عملية لتكوين الملكة اللغوية، وهي تقوم على تقوية الزادين العلمي واللغوي، والدربة التطبيقية عليهما، بالإضافة إلى التمثيل ببعض الملكات اللغوية الفرعية.

> **اللغة العربية والدين مترابطان لا ينفكَّان، فلا تقوم معرفة الدين ومراد الله إلا على أساس العربية، ويظهر دورها الكبير في ثلاثة مجالات: العقيدة، حيث يؤثر الجهل بالعربية إلى التخليط فيها. والفقه حيث تعتبر اللغة ضرورةً للاجتهاد. والسلوك والتربية: لإدراك مواعظ القرآن والتأثر بقوارعه**

مدخل تمهيدي:

ويضم مبحثين تمهيديين:

المبحث الأول: منزلة العربية من الدين:

اللغة العربية والدين مترابطان لا ينفكان، فالعربية أساس لا تقوم معرفة الدين ومراد الله إلا عليه، ويظهر دورها الكبير في ثلاثة مجالات شرعية:

١. العقيدة: حيث نص العلماء على أن الجهل بالعربية يؤدي إلى التخليط في العقائد، وما أتي المتأخرون من هذا الباب إلا لجهلهم بالعربية.

٢. الفقه: فقد اتفقت كلمة الأصوليين على أن العلم بالعربية من أعظم ما على مريد الاجتهاد أن يتقنه.

٣. السلوك والتربية: فلا يتأثر بمواعظ القرآن ولا ينزجر بقوارعه مَن لا يحسن فهم مفرداته وتراكيبه.

المبحث الثاني: الملكة اللغوية:

الـمَلَكَة لغةً: أصل لفظ «مَلَكَة» مشتق من الميم واللام والكاف، ويدل -كما يقرره ابن فارس- على قوة في الشيء وصحة، يقال: أملَك عجينه: قوّى عجنه وشده، وملّكت الشيء: قويته. والاسم الملك: لأن يده فيه قوية صحيحة.

والـمَلَكَة اصطلاحًا: يعرفها الجرجاني بأنها: «صفة راسخة في النفس» ثم يشرح ذلك بقوله: «وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية، وتسمى حالة مادامت سريعة الزوال، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها فصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة».

وللملكة خصائص أربع لابد من التركيز عليها لفهم معناها:

» الأولى: الملكة العلمية صفة في النفس وليست مجموعة من المعلومات، فالذي يحفظ الألفاظ الفقهية ومعانيها وترتيب أبوابها وأحكامها ومسائلها لا يكون بذلك صاحب ملكة فقهية؛ حتى يصبح الفقه له سجية وصفة.

» الثانية: الملكة هبة من الله، ويمكن أن تأتي بالاكتساب، لكن لا تنفع صاحبها ولا يظهر أثرها للعيان إلا بعد سعي وجهد وتحصيل.

» الثالثة: لا تحصل الملكة لصاحبها إلا بعد تكرار كثير للفعل، فالعالم لا يكون عالمًا حقًا إلا بكثرة الاطلاع والممارسة والوقوف على الفروق ودقائق المسائل.

» الرابعة: تبدأ الملكة صغيرة ضعيفة، ثم يشتد عودها وتنمو وترسخ في النفس، تقوى بمقدار ما يتوسع الطالب ويحصل من العلم.

الملَكَة اللغوية:

الملَكة اللغوية «هي سجية راسخة في النفس، تمكن صاحبها من قوة الفهم لدقائق الكلام العربي الفصيح، وحسن التعبير عن المعاني المختلفة بلسان عربي سالم من أوضار العجمة ومفاسد اللحن، مع القدرة على الجمع والتفريق والتصحيح والإعلال ونحو ذلك».

وللملكة اللغوية أركان ثلاثة: أولها: راجع إلى الفهم العميق الذي يغوص في دقائق الكلام

الفصيح. والثاني: راجع إلى التعبير الشفوي والكتابي، بلغة فصيحة سليمة من العجمة، بعيدة عن الركاكة. أما الثالث: فراجع إلى الصناعة اللغوية، التي تُدرَك بطول الممارسة، حتى يصير الممارس قادرًا على الجمع بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات، والحكم بالصحة أو الفساد على التراكيب والمفردات.

كانت اللغة العربية محصورة في الجزيرة العربية قرونًا، إلى أن جاء الإسلام فانتشرت في أصقاع الأرض مع حملة الرسالة من المسلمين، فاستعربت شعوب كثيرة من الأعاجم، وشاركوا في الثقافة العربية مشاركة مؤثرة

الباب الأول: عقبات في طريق تكوين الملكة اللغوية

وهي إما عقبات مرتبطة باللغة ذاتها وما لحقها من تطوُّراتٍ أبعدتها عن اللسان الأول. وإما عقباتٌ مرتبطة بوسائل تحصيل الملكة، في شِقّيها التقليدي والحديث.

الفصل الأول: البُعد عن اللسان الأول:

ويمكن بيانه في ثلاثة مباحث:

» المبحث الأول: أثر العلوم العقلية:

مع انفتاح الأمة الإسلامية على الحضارات الأخرى، وخصوصًا اليونانية والهندية، بدأ التأثير يظهر من خلال نشأة علوم الكلام والمنطق والفلسفة وغيرها. ونشأت مجموعة من المعاني المستحدثة والألفاظ الاصطلاحية وطرائق التعبير، وشمل تأثيرها جميع مفاصل المعرفة الإسلامية. وكان تأثيرها في اللغة العربية من وجهين: التعبير العربي، والدرس اللغوي.

أما التعبير العربي فقد ظهرت آثارها عليه من خلال الأدب والعلوم الشرعية، ففي الأدب كثرت الحكم المنقولة عن فلاسفة اليونان في كتب العصر العباسي، كمؤلفات الجاحظ و«العقد الفريد» و«عيون الأخبار»، وهي وإن كانت معربة، إلا أنها لا تخلو من احتفاظ ببعض التعبيرات الأصلية. وفي مجال النقد الأدبي برز تأثر قدامة بن جعفر بعلوم اليونان في كتابه «نقد الشعر». ومن ذلك: تكلفه وضع تعريف للشعر على طريقة الحدود المنطقية لأرسطو، وعنايته بالتقسيمات والمقابلات، واستعمال المقاييس المنطقية.

وأما تأثير العلوم العقلية في علوم الشريعة فواضحٌ جدًا من خلال أساليبها التعبيرية، والفرق بين أساليب الصحابة وعلماء الإسلام الأوائل وبين كتب المتأخِّرين كتفسير الرازي والنَّسَفي، وشروح الحديث للمتأخرين كفتح الباري، ومحصول الرازي في أصول الفقه، وغيرها.

وإذا انتقلنا إلى الدرس اللغوي نجد التأثير المنطقي ظاهرًا، خصوصًا في علم النحو، ومن أظهر مجالات التأثر: صناعة الحدود التي صارت منتشرة في المصنفات النحوية، يقول ابن جني: «اعلم أن علل النحويين أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين». كما ظهر تأثير تلك العلوم في البلاغة أيضًا، مثل: الكلام على الأسباب والمسببات في المجاز المرسل، وغلبة النزعة الجدلية الحجاجية على أغلب مباحث البلاغة.

» المبحث الثاني: أثر التطور التاريخي:

كانت اللغة العربية محصورة في الجزيرة العربية قرونًا، إلى أن جاء الإسلام فانتشرت في أصقاع الأرض مع حملة الرسالة من المسلمين، فاستعربت شعوب كثيرة من الأعاجم، وشاركوا في الثقافة العربية مشاركة مؤثرة.

أسباب التطور اللغوي:

- العامل الزمني: فطول الزمن وتعاقب الأجيال يؤدي إلى تكاثر التصرفات المختلفة في المادة اللغوية.
- الأثر الإسلامي: حيث صار اللسان العربي يدور حول القرآن والحديث، ودخلت الألفاظ الشرعية إلى قلب اللغة، فتحولت العربية بفضل الإسلام من لغة شعرية خطابية إلى لغة علمية.
- اختلاط العرب بغيرهم: ما أدى إلى ظهور اللهجات العامية، وانتشار اللحن وبعض التحريف في الفصحى.
- أثر الحضارات الأخرى: وخصوصًا الحضارتين الفارسية واليونانية.
- التساهل في الكلام بغير العربية: خصوصًا في المناطق التي توجد بها لغات أصلية أخرى، ما يؤدي إلى سيطرتها على العربية وتأثيرها فيها.

خطوات عملية لتكوين الملكة اللغوية

١ الزاد العلمي

1. النحو والصرف
2. البلاغة
3. العَروض
4. الإملاء

٢ الزاد اللغوي

1. كتب اللغة
2. النصوص الدينية الأولى
3. كتب الأدب

٣ الدربة التطبيقية

1. التعبير الشفوي
2. التعبير الكتابي
3. البحث والتحرير اللغوي

٤ التمثيل ببعض الملكات اللغوية الفرعية

1. ملكة الفهم الاستنباطي المستند إلى اللغة
2. ملكة تحديد السياق الزماني للنص اللغوي
3. ملكة الربط بين المعنى والإعراب النحوي
4. ملكة تحليل المادة اللغوية باعتماد قواعد البلاغة
5. ملكة التعبير اللغوي السليم عن المعاني الحادثة

مظاهر التطور اللغوي:

الأول: تطور الألفاظ:

وذلك بأن يكون للفظ معنى معين في زمن ما، ثم يهجر ذلك المعنى بعد مدة، ويصبح للفظ معنى آخر، كالألفاظ الشرعية (الصلاة، الصوم، الزكاة..) فقد كانت تفيد معنى آخر قبل الإسلام. وقد يكون اللفظ مستعملاً فيهجر، فهناك الكثير من الألفاظ التي كانت مألوفة قديمًا، ثم الآن نحتاج إلى تقليب المعاجم لفهم معانيها.

الثاني: تطور التراكيب والأساليب:

بسبب سريان العامية إلى اللغة المكتوبة، أو بسبب تأثير العلوم المستحدثة.

> **سعى المستعمر لطمس الآداب العربية، وإحلال المناهج الأوروبية مكانها، وعمل أذنابه على التنكّر للآداب القديمة، والطعن بعمود الشعر، والحطّ من قدر شعراء قدماء كبار، وكثرت الدعوة إلى التجديد في كل شيء، لا لشيء إلا ليقال: إنهم مجددون!**

المراحل الكبرى للتطور اللغوي:

المرحلة الأولى: الفتوة:

وتمتد من العصر الجاهلي وحتى بدايات العصر العباسي، واختصت اللغة خلالها بحفاظها على الخصائص اللغوية، والسلامة من الاختلاط بالألسن الأخرى، كما انتقلت من المحلية إلى العالمية.

المرحلة الثانية: التحضر:

وتواكب مراحل ازدهار الدولة العباسية، خالطت اللغة خلال هذه المرحلة لغات أخرى، فداخلتها العجمة، ولم تعد لغة الأدباء حجة في علوم اللغة، كما أنها سايرت النهضة الحضارية، فرقت وعذبت، كما كثرت ترجمة آثار الفرس واليونان.

المرحلة الثالثة: الجمود:

وتبدأ مع ضعف الدولة العباسية وما تلاه من انحدار حضاري، حيث جمدت العلوم الإسلامية، وغاب الإبداع والتجديد، ولحق ذلك اللغة في طرائق تدرسيها، وفي فنونها الأدبية وأساليبها التعبيرية، ولكنها مع ذلك تصدت -وما تزال- للكثير من الحملات التي حاولت هدمها أو تشويهها، بدءًا

بحملات التتار والمغول، مرورًا بمحاولة تتريك اللغة زمن العثمانيين، ثم الاستعمار الغربي.

» المبحث الثالث: التغريب اللغوي والأدبي في العصر الحديث:

المقصود بالتغريب: التغيير لموافقة ما عند الغرب، من لغة أو ثقافة أو حضارة. وبدأ التغريب بالحملة الفرنسية على مصر، وما تبعها من حملات استعمارية على البلاد العربية التي كانت منهكة أصلاً، وظل جاثمًا على صدرها ولم يدعها حتى تركها غربية الهوى حتى النخاع. ومظاهر التغريب كثيرة، أهمها:

التغريب اللغوي:

وذلك بتشجيع اللهجات المحلية، بغية قتل اللسان العربي، والطعن في اللغة العربية، واتهامها بالقصور عن اللحاق بركب الحضارة، واتهام حروفها ونحوها وإملائها وشعرها بالتعقيد، بهدف إحلال اللهجة العامية، واستخدام الحروف اللاتينية في الكتابة.

التغريب الأدبي:

سعى المستعمر لطمس الآداب العربية، وإحلال المناهج الأوروبية مكانها، وعمل أذنابه على التنكر للآداب القديمة، والطعن بعمود الشعر، والحط من قدر شعراء قدماء كبار، وكثرت الدعوة إلى التجديد في كل شيء، لا لشيء إلا ليقال: إنهم مجددون!

> **يعاني تعليم العربية من إشكالات وعقبات، بعضُها عائدٌ للتدريس التقليدي، كالجمود على بعض المتون، والانشغال بالألفاظ عن المضامين والتطبيق، وبعضها عائد للتدريس الأكاديمي كالمناهج والانشغال بها عن المراجع التراثية، وفصل العربية عن العلوم الشرعية، وضعف التمكُّن عند بعض الأساتذة وغيرها**

الفصل الثاني: نقائص تدريس العربية:

» المبحث الأول: التدريس التقليدي وتضخم المعلومات:

أبدع علماء الإسلام في مجال تدريس العلوم، وظهر ذلك بشكل واضح من خلال ابتكار «المتون العلمية»، وكان الهدف منها تيسير حفظ المسائل في أذهان الطلبة بعد تشعب العلوم وتوسعها، وكانت تنظم شعرًا لأنه أعلق بالذهن، وطال العهد فأصبح فهم تلك المتون يحتاج إلى فك الرموز والطلاسم، وصارت هناك شروح للمتن، وتعليقات على الشروح...الخ. ورغم الفائدة الكبيرة للمتون، إلا أن فيها عيبًا من ناحيتين: إشكالات المضمون المدرَّس، ووسائل التدريس.

أما إشكالات المضمون المدرس: فسببها الجمود على متون معينة في كل فن، وعدم التوسع إلى غيرها، إما لأسباب ذاتية ناتجة عن كسل المدرسين عن استحداث مضامين جديدة، أو موضوعية عائدة إلى اشتهار بعض المتون المخدومة بالكثير من الشروح والحواشي فيسهل على المدرس حلها، وعلى الطالب فهمها.

وأما إشكالات وسائل التدريس: فمن أهمها: الانشغال بدراسة الألفاظ على حساب المضامين المقصودة بالأصالة، وفقر التمثيل؛ حتى إنك لتجد «ضرب زيد عمرًا» مكررة في مجمل كتب النحو، بالإضافة إلى ندرة التطبيق؛ حيث يكون همّ المدرس منصبًا على فهم الطالب المتن، دون التأكد من قدرته على تطبيقه، فضلاً عن ضعف تعليم المهارات اللغوية كالخطابة والنظم والنثر، وندرة القراءات الأدبية التي تعد أساسًا لفهم قواعد اللغة وتطبيقها.

» المبحث الثاني: التدريس الأكاديمي وتضخم المنهجية:

يتركز العيب فيه أيضًا في جانبين: إشكالات المضمون المدرَّس، ووسائل التدريس.

أما إشكالات المضمون المدرس: فأولها المناهج وانشغال المدرسين والطلبة بها على حساب المضمون، وضمور المادة اللغوية بالمقارنة مع العلوم الأخرى، بالإضافة للانقطاع عن الكتب والتراث واعتماد الطلاب على الكراسات والكتب الحديثة.

وأما إشكالات أساليب التدريس: فمن أهمها فصل العربية عن العلوم الشرعية، وغياب التدرج العلمي، وقلة الحفظ، وضعف التمكُّن العلمي عند بعض الأساتذة الجامعيين، بالإضافة إلى دعوات التجديد التي تطرح من قبل أناس غير متمكِّنين.

لابد لتكوين الملكة اللغوية من تحصيل زاد لغوي غزير، ومن أهم روافده: النصوص الدينية، فهي الأساس الذي تستخرج منه أعلى قواعد العربية وتعبيرات البلاغة، وأول تلك النصوص القرآن الكريم، ثم السنة النبوية، ثم كلام السلف الذين هم أئمة الدين، وآخرها كتب السيرة والتاريخ

الباب الثاني: خطة عملية لتكوين الملكة اللغوية

يقدم المؤلف ضمن هذا الباب مقترحات لتكوين الملكة اللغوية، تجمع بين التمكن من المعرفة العلمية واللغوية النظرية، والتدريب العملي التطبيقي، ولكنه يشدد قبل ذلك على أنه قبل الإقدام على تلك الخطوات لابد أن يتوفر لدى الراغب في ذلك شيء من الموهبة الفطرية، وكثير من الجهد والعمل.

الفصل الأول: الزاد العلمي:

ويضم خمسة علوم: النحو والصرف والبلاغة والعَروض والإملاء.

» النحو والصرف:

وتبدأ الخطة بإزالة الصدأ، من خلال قراءة عدد من الكتب للمبتدئين، مثل: كتاب «النحو الواضح» لعلي الجارم ومصطفى أمين، وسلسلة «اقرأ» لأحمد بوكماخ، و«متن الآجرومية». بعد ذلك تبدأ مرحلة التعرف إلى قواعد واصطلاحات علمي النحو والصرف، من خلال الكتب التالية: «شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب» و«قطر الندى وبل الصدى» لجمال الدين ابن هشام، و«شذا العَرف في فن الصرف» للشيخ أحمد الحملاوي، و«التطبيق الصرفي» لعبده الراجحي، وتختم هذه المرحلة بكتاب «جامع الدروس العربية» لمصطفى الغلاييني. ثم تأتي مرحلة التمكن والرسوخ، بدراسة ألفية ابن مالك، و«مغني اللبيب» لابن هشام، بالإضافة إلى «لامية الأفعال» للحضرمي و«المغني في تصريف الأفعال» لمحمد عبد الخالق عضيمة و«تصريف الأسماء والأفعال» لفخر الدين قباوة. بعد ذلك تأتي مرحلة التوسع، بالاطلاع على مجموعة من الكتب، منها: «الخصائص» لابن جني، و«الإنصاف في مسائل الخلاف» للأنباري، و«الممتع في التصريف» لابن عصفور، و«شرح المفصل» لابن يعيش.

» البلاغة:

وهي ثلاثة فنون: البيان والمعاني والبديع، وأول ما يبدأ الطالب بدراسته كتاب «البلاغة الواضحة» لعلي الجارم وأحمد أمين، ثم كتاب «جواهر البلاغة» للسيد الهاشمي، ثم كتاب «البلاغة تطور وتاريخ» لشوقي ضيف. وفي مرحلة التوسط يعتني الطالب بحفظ متن «الجوهر المكنون» للأخضري، ثم يقرأ كتاب «المنهاج الواضح في البلاغة» لعوني حامد، ثم كتابي «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني.

ثم في مرحلة التوسع يقرأ الطالب «متن التلخيص» للقزويني، و«متن عقود الجمان» للسيوطي، ويتوسع في كتب: «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري، و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» للقاضي الجرجاني، و«الموازنة بين أبي تمام والبحتري» للآمدي، وليستعن بكتب التفسير التي فيها نفائس البلاغة مثل: «الكشاف» للزمخشري، و«التحرير والتنوير» لابن عاشور.

» العَروض:

يعمد الطالب في المرحلة الأولى إلى دراسة كتابي «ميزان الذهب في صناعة شعر العرب» للسيد الهاشمي، و«شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل» لمحمود مصطفى. وفي المرحلة الثانية يحفظ منظومة «مجدد العوافي من رسمي العروض والقوافي» للشنقيطي، كما يمكنه الاستزادة من كتب أخرى، مثل: «العيون الغامزة» للدماميني، و«الوافي في العروض والقوافي» للخطيب التبريزي.

» الإملاء:

يحتاج التمكن في هذا الفن إلى التمكن من قواعد النحو والصرف، لأنها تعتمد عليها اعتمادًا كبيرًا، ومن الممكن -قبل الغوص في قواعد النحو والصرف- قراءة كتاب «قواعد الإملاء» لعبد السلام هارون. والعمدة في النهاية ليس على كثرة الحفظ وإنما على الممارسة العملية.

الفصل الثاني: الزاد اللغوي:

يتم تحصيل الزاد اللغوي من ثلاثة أبواب: من كتب اللغة، ومن النصوص الدينية، ومن كتب الأدب.

» **كتب اللغة:**

تحصيل الزاد اللغوي من كتب اللغة يتم بأن يبدأ الطالب بتمهيد في علم اللغة وفقهها، وذلك بالاطلاع على الكتب التالية: «دراسات في فقه اللغة» لصبحي الصالح، و«علم اللغة» و«فقه اللغة» لعلي عبد الواحد وافي، و«فصول في فقه اللغة» لرمضان عبد التواب، و«المزهر في علوم اللغة» للسيوطي. ثم إلمام الطالب بالألفاظ والتراكيب النافعة في الكتابة والخطابة، ويتأتى ذلك بقراءة كتب الأدب والشريعة وحفظ المتون، مثل: «نظم موطأة الفصيح» لمالك بن المرحل، وكتاب «الألفاظ الكتابية» للهمداني. ثم الإلمام بالمعاجم اللغوية، فتكون للطالب قراءة دورية فيها، وليست فقط وقت الحاجة، ويبدأ بمعجم مختصر مثل «مختار الصحاح» للرازي، ثم يطالع بعدها المعاجم الموسعة مثل «القاموس المحيط» للفيروز أبادي، و«لسان العرب» لابن منظور.

» **النصوص الدينية الأولى:**

فهي الأساس الذي تستخرج منه أعلى قواعد العربية وتعبيرات البلاغة، وأول تلك النصوص القرآن الكريم، فهو كلام الله وأساس الفصاحة ولب البلاغة. ثم السنة النبوية، وهي كلام أفصح من نطق بالضاد محمد ﷺ. يأتي بعد ذلك كلام السلف الذين هم أئمة الدين. وآخرها كتب السيرة والتاريخ، ففيها العجائب من فصيح الكلام التي لا يتفطن لها كثير من الأنام، كسير أعلام النبلاء للذهبي، والبداية والنهاية لابن كثير، والسيرة النبوية لابن هشام.

» **كتب الأدب:**

حيث إن لها دورًا مهمًا في تصحيح الذوق اللغوي وإصلاح أحوال النفوس، وتحصيل ذلك في المرحلة الأولى يكون بالاستئناس بالقراءة الأدبية، وذلك بمطالعة مجموعة من الكتب، كـ«المنتخب من أدب العرب» لعلي الجارم وزمرة من المؤلفين، و«جمهرة خطب العرب» و«جمهرة رسائل العرب» لأحمد زكي صفوت، ثم ينتقل الطالب إلى حفظ الأشعار كالمعلقات، وقراءة كتب الأدب الأصيلة، مثل: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، و«الكامل» للمبرد، و«البيان والتبيين» للجاحظ. ثم ينتقل إلى القراءة الأدبية الموسعة، فيطلع على أشعار فحول الشعراء في عصور الاحتجاج كحسان بن ثابت والحطيئة والفرزدق وجرير والمتنبي وأبي تمام، ويتفحص كتب الأدب فينهل منها، مثل: «الإمتاع والمؤانسة» للتوحيدي، و«نفح الطيب» للمقري، ومقامات الهمذاني والحريري، وكتب الأمثال، ولا بأس في مطالعة كتب الأدباء المعاصرين، كشوقي ضيف والرافعي والزيات والعقاد ومحمود شاكر.

يبدأ التدرُّب على التعبير الكتابي بالتقليد، وذلك بأن يقلِّد كبارَ الكتاب ويحاكيهم في أساليبهم وطرقِهم وتصرفاتهم في الكتابة، ثم يجتهد في نفسه بالتدرُّب والممارسة، كأن يأخذ معنًى من آية قرآنية أو حديث نبوي أو بيت شعري ثم يعيد سبكه بأسلوبه وصياغته من الكلام العربي الفصيح

الفصل الثالث: الدربة التطبيقية:

حتى تتكون لدى الطالب الدربة اللازمة لتكوين الملكة اللغوية، عليه أن يتدرب وفق ما يلي:

» **التعبير الشفوي:**

ويمكن تحقيقه بالتدرب على القراءة بصوت عالٍ لترويض اللسان على القراءة بشكل فصيح، ثم تقليد حديث الفصحاء سواء بحفظ بعض الخطب العصماء أو التحدث أمام المرآة أو أمام صديق، ومما يساعد على ذلك أيضًا تعود الحديث بالفصحى في الحياة العامة، ويكمل ذلك تعلم محسنات الخطابة والدراية بأركانها وقواعدها وخصائصها وعيوبها.

» **التعبير الكتابي:**

يبدأ التدرُّب على التعبير الكتابي بالتقليد، وذلك بأن يقلد كبار الكتاب ويحاكيهم في أساليبهم وطرقهم وتصرفاتهم في الكتابة، ثم يحاول بعد ذلك أن يجتهد في نفسه بالتدرب والممارسة، كأن يأخذ معنى من آية قرآنية أو حديث نبوي أو بيت شعري ثم يعيد سبكه بأسلوبه وصياغته من الكلام العربي الفصيح. ومما يساعد في ذلك أيضًا إعادة إحياء بعض الطرق البلاغية المهجورة، كالإخبار عن الماضي بصيغة المستقبل، والالتفات، يضاف إليها تعلم محسنات الكتابة من قبيل تحسين المطلع والخاتمة وأساليب الانتقال، والحرص على المعاني الراقية غير المبتذلة.

» **البحث والتحرير اللغوي:**

وتحرير معاني الألفاظ وبيان الصحيح من الغلط منها، سواء ما يشتمل على معاني المفردات أو التراكيب، وما تشتمله كل واحدة منها من تغيرات وتحويرات وأخطاء.

لكتب الأدب دورٌ مهمٌ في تصحيح الذوق اللغوي وإصلاح أحوال النفوس، وتحصيل ذلك في المرحلة الأولى يكون بمطالعة الكتب التي تجمع نصوصًا أدبية منتقاة، ثم ينتقل الطالب إلى حفظ الأشعار كالمعلقات، وقراءة كتب الأدب الأصيلة، ثم ينتقل إلى القراءة الأدبية الموسعة، فيطلع على أشعار فحول الشعراء في عصور الاحتجاج، ويتفحص كتب الأدب فينهل منها

الفصل الرابع: التمثيل ببعض الملكات اللغوية الفرعية:

» **ملكة الفهم الاستنباطي المستند إلى اللغة:**

وهي أقرب إلى علم «أصول الفقه»، والمقصود بها: القدرة على استنباط الحكم الشرعي من نص القرآن أو السنة، بقطع النظر عن الأدلة الأخرى. وتحصيلها يكون بدراسة المباحث اللغوية من علم أصول الفقه، كحروف المعاني والحقيقة والمجاز والمنطوق والمفهوم...الخ. ثم التدرب على ذلك، بأن يعمد الطالب إلى نص من القرآن أو الحديث النبوي فيفهم ألفاظه ومعانيه الإجمالية استنادًا إلى التفاسير، ثم يشرع في التحليل اللغوي الاستنباطي للنص لفظًا لفظًا وجملة جملة، بما يشبه صنيع المعربين إذا قصدوا إلى إعراب جملة ما.

» **ملكة تحديد السياق الزماني للنص اللغوي:**

وتفيد في دفع نسبة بعض النصوص إلى مَن تعزى إليه على سبيل الغلط، وهذه الملكة تتحقق بأمور، منها: تمييز الخصائص الأسلوبية، ووجود الألفاظ الشرعية التي لم تكن في الجاهلية، ووجود شواهد الحضارة المختلفة، والمصطلحات العلمية الحادثة، والأحداث التاريخية المشهورة.

» **ملكة الربط بين المعنى والإعراب النحوي:**

والمراد بها القدرة على أمرين اثنين:

* الأول: فهم المعنى المراد من الكلام انطلاقًا من إعراب بعض شراحه، فحين تقرأ قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَاأَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥]، تقرأ للمفسرين اختلافًا في إعراب «ما» بين قائل إنها استفهامية، وقائل إنها نافية، وما ينبني على ذلك من النظر في معنى ﴿نَبْغِي﴾، فتفهم ذلك كله حق الفهم.
* الثاني: القدرة على التعبير عن المعاني المختلفة باستعمال اصطلاحات صناعة الإعراب، فهي أيسر وأوضح وأكثر اختصارًا، فلو قال قائل: «إن قراءة المؤلفات النافعةَ للطالب القراءة التدبرية»، فسُئل عن سبب نصب «النافعةَ»، أي الجوابين التاليين أقصر وأدق: أن يقول: لأن مقصودي أن القراءة هي الموصوفة بكونها نافعة، وليس مرادي أن أصف المؤلفات بكونها نافعة. أم أن يقول: «النافعةَ» نعت لـ «قراءة»؟

» **ملكة تحليل المادة اللغوية باعتماد قواعد البلاغة:**

ويقصد بها القدرة على فهم كلام المفسرين وشراح الحديث والأدب دون الحاجة للرجوع إلى الكتب لفهم المراد. والقدرة على تحليل أي نص لغوي باستعمال مصطلحات البلاغيين. كأن تقرأ قول المتنبي:

ألا أيها السيف الذي ليس مغمدًا
ولا فـيه مرتـاب ولا منه عاصم

فتقول: هذه استعارة تصريحية أصلية في «السيف»، والقرينة «النداء»، و«ليس مغمدًا» ترشيح. فأنت بهذا تستغني بالمصطلحات البلاغية عن كثرة الشرح والتحليل لكلام الشاعر.

» **ملكة التعبير اللغوي السليم عن المعاني الحادثة:**

والمقصود بها القدرة على التعبير عن المعاني الجديدة بلسان عربي فصيح، بعيد عن عجمة العصر الحديث، وهذا يشمل التراكيب التي دخلتها الكثير من التعبيرات الجديدة الركيكة نتيجة سوء الترجمة، والألفاظ التي وفدت إلينا من الحضارة الغربية، وفيها الغث والسمين.

ما باليد حيلة

أ. محمد علي بسيوني

ما دمنا لا نملك قلوبنا التي في أجوافنا، فلا نستطيع أن نوقف دقةً أو نأتي بدقةٍ لتلحق تاليتها.

وما دمنا لا نملك عقولنا التي في رؤوسنا، فلا نستطيع أن ندرك فوق ما ينبغي لها، أو أن نتجاهل ما وصل إليها حقًا.

وما دمنا لا نملك رئتينا اللتين بين أضلعنا، فلا نقدر على إيقاف أنفاسنا أو كتمها، ولا يمكننا اختيار ما نستنشقه، كما لا يمكننا ملء رئةٍ دون الأخرى.

وما دمنا لا نملك أشياء كثيرة في خاصة أجسادنا، فلا يمكن أن نملك كل شيء، وإنما ذلك من صفات الخالق لا المخلوق.

وما دام ذلك هو القانون، وتلك هي الحكمة، فلا نتفاخر بعلمٍ أو عملٍ، ولا نتوارى وراء معرفتنا التي وإن صالتً وجالتً إلا أنها محدودة حد وجودنا على كوكب صغير لا يساوى في حجم الشمس شيئًا، ضمن مجموعة شمسية، ضمن مجموعات أخرى، تحويها مجرة ضمن مجرات لا تحصى، في كون لا يعلم مداه إلا الله.

فحُق للإنسان أن يتأدب، وحقيق له أن يتفكر، وأن ينحني لمجد الله وقوته، وجبروته وعزته، وسلطانه وقدسيته.

عن الفضيلة

أ. هدى الصالح

تخيَّلتُها حسناء كالقمر، هيفاء كغصن البان، بسحرها الفتّان باهَت كلّ أنواع الجمال، وبحُسنها وضيائها أخجلت الشمس من سطوع نورها.

عشقتها عشق المغرم الولهان، ورحتُ أفتش عنها بين الكواكب المتناثرة، والفضاء الواسع، والأرض الممتدة بين مشرقها ومغربها، وبين ذرى الرمال، ولآلئ البحار، حتى وجدتها!!

وجدتها عند المعلم المخلص المتفاني الذي زرع القيم والأخلاق في الجيل الناشئ، وحبّبهم بالعلم، وكلّ همّه بناء جيل هادف.

ووجدتها عند الطبيب الذي يعالج المرضى بكل حنان كأم تحنو على فلذات أكبادها، ويتجلّد كالأب ليسند ويقوي مريضه ليمتثل للشفاء ويخاف عليه من نسمة غادرة، بل يتصدّق عليه بما شاء الله إن كان فقيرًا.

ووجدتها عند القاضي الذي ينتهج الحكمة والعدل، ويعطي صاحب الحقّ مظلمته، ويحكم على الجاني بما يستحق.

هل اكتشفتم هذه الحسناء الجميلة المثالية في هذا العالم المظلم، وهل عرفتم من تكون؟

أعلمتم من هي يا أصدقائي؟.

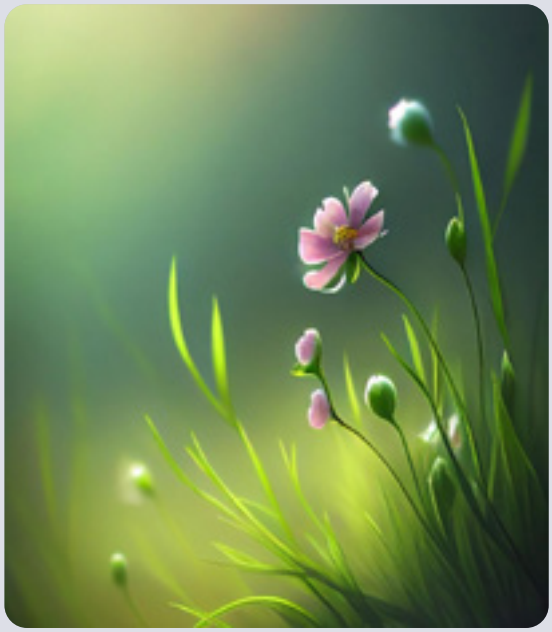

القدرة على تحمل المسؤولية

أ. علاء عرنوس

بقدر تلك القوة التي يكون فيها الفرد قادرًا على تحمل المسؤولية تتسع عنده دائرة الحرية، وتقوى حصون الثقة بالنفس وتشتد، وتعلو راية احترام الذات خفاقة، ويلملم الخوف حقائبه هاربًا من القلوب عبر مطار الشعور دون عودة، ويصبح القائد الأول في التحكم والسيطرة على الذات والأحداث، والقادر على اتخاذ القرارات دون أن يمد ذلك الأخطبوط يديه إلى عنقه.

وبذلك يكبر الرسام ويبدع بريشته فنًا هادفًا، ويسهل على الباحث حل المشكلات والأزمات والأمور الشائكات بطريقة حاسمة، ويحرص المفكر على أن تتلاءم مهام الحياة لديه مع الغايات والأهداف التي يطمح في تحقيقها ولا يألو جهدًا في تجنب مصيدة الفشل وكل ما هو غير إيجابي.

إذا غابت شمس المسؤولية عن الحياة، ضاعت القيم، وانحلت المبادئ والأخلاق، ومُيعت الثوابت.

والغاية من الخلق منشودة مرتبطة بمناط التكليف فلا إعمار في الأرض دون تحمل المسؤولية. (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

في ظلال الحرب

أ. ضحى عرفات

في ليلة من الليالي أراد الله عز وجل أن يبين للناس قدرته وجبروته فاهتزت بهم الأرض هزة هلعت القلوب لها واضطربت، وطاشت العقول، استمرت لبعض الثواني.. صراخ، دمار، موت، أنقاض، وكأن هذا جزء صغير من يوم القيامة، كل شخص كان همه نفسه فقط؛ الأم تركت أولادها والأب في ذهول، وكأن كل شخص يقول: اللهم نفسي .

ظن الناجون من الحرب في سوريا أن ذلك نوع جديد من السلاح الذي كان يقتلهم به ذلك المجرم، وظن الآخرون أنها الحرب، وعندما هدأت الأرض قليلاً خرج الناس، وعرفوا أن هذا أكبر وأعظم، وأنه من عند الله، وهنا أصبح الخوف أصدق وأعمق، والسؤال الذي بات يدور في مخيلتنا منذ تلك اللحظة: إلى من نلجأ الآن؟ وكان الجواب: إلى الله نعود ونعبده ونتقرب منه ونسأله المغفرة والرحمة والثبات على دين الإسلام ونحمده ونشكره في السراء والضراء.

وأنزَلَ السَّكينةَ عليهم

د.خير الله طالب

خرج النبي ﷺ بأصحابه رضي الله عنهم معتمرين، فصدّهم المشركون عن البيت، ثم صالحوهم على شروط مجحفة بالمسلمين في ظاهرها، فأصابت المسلمين منها صدمة أقعدتهم عن المبادرة بالتحلل من إحرامهم، وعادوا متألمين من إرجاع المسلم الهارب بدينه إلى أيدي المشركين، دون العكس، فكان الموقف عليهم أشد من القتل والقتال، لكنهم صبروا عليه وصابروا.

ومع حزنهم.. وفي طريق عودتهم ينزل عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣].

بشارة بالنصر الذي يبدأ بثبات القلوب، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤]. والسكينة تشمل الطمأنينة، والسكون إلى الحق، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة التي تشوش القلوب وتزعج الألباب وتضعف النفوس، والشجاعة عند البأس، والثقة بوعد الله، والارتياض على ترقّبه دون حسرة. «فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابة رضي الله عنهم لمّا جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحطّ من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيمانًا مع إيمانهم». ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ «فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر»[1].

تتوالى البشارات في السورة ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ١٨-١٩]. رضي الله عن المؤمنين المبايعين ثم المطاوعين، فعلم ما في قلوبهم من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، جاهدوا أنفسهم على أمر الله ورسوله مرتين.. فأنزل السكينة عليهم، فصاروا أهلاً للفتح، فجعل الله صلح الحديبية أعظم الفتوح، كما قال الزهري[2]، وصارت الشروط المزعجة سببًا لفتح مكة، وفتح لهم قبلها خيبر، ثم فتح لهم الأرض.

فتحوا قلوبهم للنور، فصاروا أهلاً لفتح الأرض بالنور، ومنع من يحجب الناس عن النور بالقوة.

وبعض شعوب المسلمين اليوم قامت للجهاد، فانكسرت شوكتها الأولى، فنحن اليوم نُختبر بالمرابطة على الإعداد، وملازمة ثغور المسؤوليات الذاتية، واستمرار المجاهدة في الواجبات الجماعية، والعزيمة على استبانة أمر الله في كل مسألة، والتزام إرشاد الوحي في كل نازلة، في شؤون الفرد والأسرة والتربية والتعليم والاقتصاد والإعلام والسياسة والفتوى والعلاقات والقتال والسلم، بعيدًا عن شذوذات المسائل وسقطات العلم والْتواءات الثقافة.

الأمر الذي يحتّم مسؤوليات على أهل العلم والفتوى في بيان المسائل وتوضيح المواقف، والصدع بالحق في مواجهة الباطل متّحدين على قلب واحد، كما يوجب على أهل الدعوة والتربية تقريب العلم الواجب، وتسهيل التعلم والعمل، وتزكية النفوس، ويدعو أهل الفكر إلى أصالة النبع دون شوائب المستنقعات، ويستلزم من سائر العاملين في خدمة الناس أن يكون عملهم على بصيرة، وفي خدمة الوعي، دون خضوع لمانحين مستبدّين، يسلبون الفطرة ويطفئون النور بدعوات الجاهلية المظلمة التي أهلكت أصحابها، فيودّون أن نكفر كما كفروا فنكون سواء.

حينما تسكن نفوسنا لأوامر الله مالك الأرض وما عليها، فلا نجد فيها حرجًا ونسلّم تسليمًا؛ حينها تتنزل السكينة في القلوب، ويغشاها ما غشي المسلمين قبيل بدر، وأيد الله عباده بجند من السماء، وكان النصر المبين.

(١) تفسير السعدي لسورة الفتح. وينظر تفسير ابن كثير، وابن عاشور.
(٢) ذكره الواحدي والبغوي في تفسيرهما.

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com